على مرمى قُبلة

إخلاص فرنسيس

على مرمى قُبلة

مجموعة قصصية

2020

فرنسيس، اخلاص موسى
على مرمى قبلة/ اخلاص موسى فرنسيس .- عمان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، 2019
( )ص.
ر.إ. : 6518/ 12/ 2019
الواصفات: / القصص العربية / / الأدب العربي/ / العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية اخرى

ISBN: 978-9923-32-045-7

جميع حقوق الطّبع والنّشر محفوظة للمؤلف

لا يسمح بتصوير أو نسخ جزء أو كل هذا الكتاب بدون الموافقة الخطّية من المؤلف.

وكل مَن يُخالف ذلك، يعرّض نفسه للمسائلة القانونية

سلسلة إصدارات الكاتبة إخلاص فرنسيس : الإصدار الثاني

تنفيذ الغلاف : إيليا نظمي

دار يــافــا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – تلفاكس 4778770 6 00962
ص.ب 520651 عمان 11152 الأردن
E-mail: dar_yafa @yahoo.com

إهداء

إلــى كلِّ امــرأةٍ مترعــةٌ روحُهــا بحلــمٍ مبتــورٍ، إلــى كلّ امــرأةٍ اختنــقَ طموحُهــا فــي ســراديبِ الحــربِ، وطُعنــتْ بخنجــرٍ صديءٍ،وأُهــدر دمُهــا علــى أرصفــة الزمــن. إلــى ذلــك الرجــل غريــب الأطــوار الــذي أنتظــره، وقد طال الغياب . الرجل الذي سقط سهوًا بين سطوري، يُملي عليّ أحلامي، وكأنّه الحبر الذي أزهر بعد احتضار.

إخلاص فرنسيس

تقديم

إلى بلاد أخرى تهاجر الرّوح، تستمدّ الطّاقة من تلألؤ النّجوم، تنزف على بشريّة شاختْ في أتون العنف والدّمار.

تئنّ الرّوح، تشتاق إلى أن تركن إلى جسد، ترتديه، تتدثّر بدفء الحبّ، تهبط حينًا، وترتفع حينًا آخر، معاناة ربّانها الإحساس، من سحبِ الكلمات تستقطر ملح دمعها، وحشرجة حرف مخنوق في ظلّ عجز رزحت تحته، وما أصعب الإحساس بالموت في الحياة.

تمدّ يدك لتقبض على الحياة، فتراها تنساب من بين الأنامل، ينسلخ الإنسان عن إنسانيته، وينوء تحت سطوة الجوع وصفعة الجشع، فيعود صفر اليدين. جعبته خالية إلّا من حفنة تراب تذروها ريح الشكوك. هذه المجموعة القصصية بعضها عزلة وحديث مع النفس، وبعضها الآخر تأمّل وإعادة نظر فيما يجري من حولي، ونقل لأحداث واختبارات من أرض الواقع عن الحبّ والموت والحياة، نقلتها دمعة دمعة.

قصص ملأت مجتمعاتنا، أردت من خلالها أن أسلّط الضوء على المعاناة التي يعيشها الإنسان بعيدًا عن الحبّ، وعلى خبايا الإنسان حين يقف أمام المرآة يرى ذاته، كاشفًا أعماقه بكلّ صدق، معرّيًا أفكاره. كلّ منّا تدور في داخله حرب الحنين واللوعة، اللهفة والحبّ، الأشواق والآهات، الأحلام والأمنيات.. يغسلنا الألم، فينبت الأمل بصباح مشرق بعد كلّ ليلة أرق.عندما نعيش الحبّ يصبح جزءًا من كياننا ومن صميم حياتنا، نضع بصمته على كلّ ما لمست أيادينا. هو الحبّ الجليل النبيل، به نكسر التقاليد والأعراف، ونحتضن الحياة بكلّ ما أوتينا من قوة. ليس ثمّة قوة أعظم من قوة الحبّ شفاءً لوجع الإنسانية، ينير سبيل الإنسان، وهو الطاقة الكامنة وراء كلّ مداركنا ومشاعرنا. الوقوع في الحبّ ولادة، والابتعاد عنه موت.

إخلاص فرنسيس

فن صناعة الحياة

مجدي الدقاق

المسافة بين اليوم والغد.. حلم، والحلم فكرة.. والفكرة تبدأ بكلمة، والكلمة طاقة نور تشع بضوئها على الوجدان والعقول الباحثة عن غدٍ يحقق إنسانيتها.

أن تكون لبنانياً فهذا يجعلك مستهدفاً من أعداء الحياة، لأنك ابن مدرسة فن التعلق بالأمل وحبِ الحياة، وخريج خنادق الحربِ والرحيل والسفر والغربة، حاملاً بعض من ثلج الجبل، ونقشاً لشجرة الآرز.

وأن تكون إلى جانب لبنانيتك كاتباً ومُبدعاً فتلك حكاية أخرى!

إخلاص فرنسيس إحدى كاتبات لبنان الجدد التي وجدت في الكتابة وسيلة للخلاص من جحيم تاريخ دام، حاول سرقة روح وهوية مجتمع لم يُعرف عنه إلا التسامح والعيش المشترك، واستبدل كل هذا بثقافة وتقاليد غريبة وافدة.

وكتابات ابنة لبنان الجنوبية، الشعرية والقصصية هي امتداد لجيل الرواد اللبنانيين، فنحن أمام مجموعة قصصية قصيرة تعبر عن الحلم الحضاري اللبناني والعربي في مجتمع إنساني متحرر من أسر المذهب والطائفة، وقيود التقاليد والمسلمات .

في سبع وعشرين قصة قصيرة، اختارت الكاتبة عنواناً واحداً لتزين

بها غلاف المجموعة «على مرمى قُبْلة» فوضعتنا جميعاً على حافة الشوق طمعاً لأن نكون على مرمى دقة قلب!

تقدم الكاتبة نماذج بشرية بتجارب مختلفة، يجمعها في النهاية خط واحد مشترك، بعد أن توغلت في أعماق أبطالها، وجعلت حواراتهم وحديثهم مفتاحاً لفهم شخصياتهم، وهي تعترف في إحدى لقاءتها الصحفية أنها امتلكت الخيال مع الحلم واستندت للتجربة الذاتية وتجارب الآخرين واعترافات المعذبين، وادعاءات الحمقي، وندم المحبين، مع قراءة الواقع؛ فكانت هذة الحكايات المتخمة بالجروح والألم والوجع الباحثة عن معنى جديد للحب والحريّة والوطن.

تكتب إخلاص فرنسيس بلسان وأحوال أبطال قصصها دون رتوش فتكشف مكامن قوتهم وضعفهم، وبؤس أفكار أسيرة لعالمٍ يحاولون تجاوز أسواره، داعية وعلى لسان بعض أبطالها أيضاً لفكرها الإنساني وحلمها في تجاوز العلاقات الإنسانية لأسوار الجغرافيا والدين والحروب والكراهية، واستبدال كل ذلك بكلمة واحدة هي الحب.

من وجع البشر، وألم العشاق والحالمين بدقات قلب عفوية وصادقة والحالمين بأوطان أكثر تحرراً، تكتب إخلاص فرنسيس سيرة أبطالها بحبر القلب؛ فنقرأها، وننضم لنادي فن صناعة الحب والأمل والحياة، فنصبح «على مرمى قبلة!«

مجدي الدقاق

القاهرة: أكتوبر (تشرين الاول) ٢٠١٩

على مرمى قُبلة

كانت ليلة ماطرة، هل تذكرين سألها وهو يداعب يديها في راحة يديه، ويرفعهما حينًا إلى شفتيه، يقبّلهما ، يتأمّلهما ، يريد أن يتأكّد أنّهما تنامان في يديه، أجابت: كيف لي أن أنسى ؟ كانت ليلة ماطرة، وكنّا كلانا على حدة، وفي ذات الوقت كان يجمعنا المطر . قطرة العشق المنهمرة تغمرنا من هامة الرأس الى أخمص القدم، بين الجموع نجلس، ولكنّنا وحدنا ، توحّدنا في ذات الروح العلوية التي فتحت أبواب السماء ، لتمطر احتفاء بنا ، المطر ، السهر ، الموسيقا الصاخبة، والبشر ، كلّها كانت تحتفل في هذا اللقاء ، لقاء الجبابرة، جبابرة العشق والجنون، ضحك طويلاً ، وبحركة آلية أخذها في حضنه، ضمّها بكلّ ما فيه من شوق،

وقال: كانت ليلة فتحت كوى القدر على روحي، وكنت أنت الغيث المنهمر والسعادة المطلقة، اعترضته قائلة: هل ما زلت تحتفظ بذلك المعطف الذي دثّرتني به كي تقيني العاصفة، وكأنك تسألين: إن كنت خلعت كياني ورميته، بالتأكيد يا عبيطة، ضحكت، وقالت: كان المطر حجّنا وحجّنا ، وكانت العاصفة سبب هروبنا من عيون الآخرين .

ركضت إليّ لا أنسى مثل عصفورة بلّل المطر جناحيها ، وأنت فتحت معطفك وواريتني

في حضن قلبك، أجل أردتك أن تدخلي أعماقي، أن ألامس ذاتك من الداخل، أن أقف على معالم هذه الروح كالريح العاتية، وكان أن اقتلعتِني من جذوري، وغرستِني على تلك الشرفة في تلك الليلة الماطرة، وهناك سجلت – يا جميلتي – انتصارك، وعرفت أنّي تحت حصارك، ولذّ لي استسلامي، أنت تحت حصاري يا هذا، كفّ عن الدعابة، فتحت معطفك، لم يكن معطفك، بل كان كيانك وروحك، وأنا "عصفورة الشجن" بللّها الحنين، وكسرت أعاصير الشوق أجنحتها، وتاهت في خضمّ العاصفة روحها، وارتجف كيانها، وتهاويت على صدرك ميناء الأمان، ظللتني بين ذراعيك، وفي تلك اللحظة أدركني الموت والحياة، وعرفت أنّك الموعود لي، وأنّك الوعد، عندما لامست يدك يدي بعد سنين، هذا عددها من تلاقي الروح بالروح عرفت أنّ هذه اليد التي ترتجف عند ملامسة يدك ما كان ذلك الارتعاش إلّا ارتعاش اليقظة، وهناك في تلك اللحظة تمّت ولادتي من جديد، السماء في مخاض، والأرض تئنّ تحت انهمار البرد، والشجر من حولنا يصرخ، وتتشابك الأغصان، وتعزف مع الريح أغنية السرمد، وأنا وتر في حضن صدرك، أنعم بعزف أنامل، تحوطنا هالة من العشق الفريد، لم أعِ عندها الأشياء، ولكنّي أدركت ذاتي حين غمرتني، وأدركت ماهية الوجود في مينائك، اصرخي أيتها الطبيعة، واسكبي جام غضبك، ويا أيها البحر الهائج لم أعد أبالي بصخبك، لأنّ صخب روحي هدأ الآن، فأنا

على مرمى قبلة من شفتيه، وفي متناول أحضانه، لحظات وكأنّها دهر تعمّد فيها طفل عشقنا بنار الحبّ المقدسة، وبخور الصنوبر، قمّطتنا الطبيعة بسحابة ماطرة، أخفتنا عن عيون البشر، وكنت أنا وليدة صدرك، أستشعر فيك الخفيات، وتكتشف مني المستور، سمفونية عشق فكّت ختوم تلك الليلة الممطرة. هل عرفت الآن لماذا أعشق المطر؟ ابتسم، وأخذ غيتاره في حضنه، وبدأ يداعبه، وهي تنام على كتفه محمولة على أذرع نغمات صوته الشجيّ مرنّما لها ترانيم أفروديت، لأنّها بك تليق يا آلهة العشق، يا سيدة قلبي المطلق، ويا عزف روحي في زمن اليباب.

ملك في الشارع

هل رأيت ملكاً في الشارع بعين باسمة؟ نعم، وشعر مشعث، ابتسامة حنونة وصوت جفّ من حرّ الأرصفة. هل رأيت ملكاً لم يتجاوز ربيعه العاشر من العمر يركض في الأزقّة معفر الوجه؟ ، يلتقط الرزق من على نوافذ العربات المسرعة، محفوفة خطواته مع كل إشارة حمراء، فراشة رمادية اللون غابت ألوانها تحت هذا الرداء الممزّق، ملك الاسم، ملك الهوية ، بنت النيل، الهواية مدفونة بين أنقاض العربات وحفر الشوارع، المهنة الأنامل الممتدّة والابتسامة الرقيقة لاستدرار شفقة المارة واستعطاف السائقين، حلوة يا ملك، في مهبّ الريح ترخي جدائل الفقر، تمدّ اليد، تنقر نافذتي، يذهب بي قلبي وأنا أرى هذه الطفولة المسروقة الطفولة، المرمية في الشوارع تحت رحمة المارة، تنتظر حسنة من المتكرمين. أين أمك؟ اختنقت كلماتها وهي تجيب بلكنة غلب عليها اليأس: هناك. من أنت؟ أنا وعيت على هذا العالم، وجدتني أركض في الشوارع.

هل لي أن أرى منزلك؟

أنت تعبرين منزلي الآن

كيف هذا؟

هنا أقيم، هذه الأرصفة بلاط قصري، وعليه سريري وغرفة نومي . أشاحت بنظرها إلى البعيد خلف الشجيرات اليتيمة في زاوية الشارع وقالت: هناك الحمام والمطبخ .

وعادت إلى الحرّ شديد .

-أعتذر، فالمكيّف الطبيعيّ معطّل في فترة الصيف، والجفاف مؤذٍ، أعتذر .

-أرى السرير دون غطاء ودون وسادة، أيها الملك .

-تضحك، لا ترين هذه وسادة .

تضم الذراع إلى صدرها ، أنام ويدي تسند رأسي، أما عن الغطاء ابتسمت قائلة: أنا أملك أغلى غطاء يمكن أن يخطر ببالك .

أدرت رأسي لأرى أين الغطاء الذي تحدّثت عنه، وكنت أتوقّع أوراق الشجر أو الجرائد البالية التي تحمل صور الساسة والرؤساء والمشاهير من أهل الفنّ، والثروات التي أتخمت خزائن البنوك، ولكن لم أر أيًا منها على الرصيف .

عدت إليها وعيناها ما زالتا معلّقتين في وجهي .

أين اللحاف ؟ لا أرى شيئًا .

أشارت بإصبعها الصغيرة التي تحمل خارطة العالم، ربما خطوط ولوحات خليط من العرق والماء وغبار الشوارع .

آسفة، ولكن أين ؟ كرّرت السؤال .

قالت: يا سيدتي لحافي مطرّز بنجمات السماء ، والشهب تلفّ أطرافه، لأدفأ في أيام البرد ، وأحيانًا يكون نقيًّا وصافيًا ولونه أزرق، وأحيانا أخرى يتكوّن من القطن الأبيض النقيّ المنثور في السماء ، غطاؤه يا سيدتي هو وجه السماء .

رفعت أبصاري وفي شفاهي ألف سؤال وسؤال، وفي حلقي غصّة، وفي عيني دمعة ودهشة، وفي صدري ألم . أين العدل ؟

من هو ؟

أردت أن أسألها ، لكنّها كانت قد اختفت بين العربات التي تذرع الطريق، وعلت أصوات أبواقها على أصوات الإنسان . لم أر سوى خصلات شعرها الأشعث الذي لوّحته شمس الطرقات . يقفز بالهواء صارخًا : ردّوا لي طفولتي

سريرُ العشقِ

كأنّني في سباق مع الزمن والسفر والترحال، لم تطأ رجلاي الأرض السمراء حتى غادرتُها على عجل، ربما مكتوب عليك السفر، قال محدّقًا فيَّ بعينيه الثاقبتين.

مكتوب عليّ السفر والترحال، ولكن لماذا لم يُكتب لي السفر إليك، والترحال معك في أقطاب المعمورة؟

ابتسم ابتسامة شاحبة، وأضاف: لا أريد أن أدافع عن القدر، ولكن هي الأقدار.

كيف للقدر أن يتحكّم بمصيرنا؟

أنتِ تعلمين أنّي لم أقف مكتوف اليدين بل حاولت بكلّ ما أوتيت من قوة كي أصنع قدرًا يليق بنا، ولكن....

لم تدعْه يكمل، انتفضت من مقعدها الوثير في الفندق الفخم الذي تقيم فيه، وراحت تمشي بخطًى بطيئة، في حذائها الرياضيّ والجينز الأزرق، راحت باتّجاه النادل، وطلبت القهوة، وعادت وفي يدها قطع من الشوكولا تقضمها بعناية.

لم أستطع أن أميّز أهي تقبّلها أم تأكلها، ابتسم لهذه الأفكار العجيبة إلى أن جلست إلى جانبه، وراحت تتأمّل وجهه الأسمر المعفر بالتعب البادي على محيّاه جليًّا، بالخطوط التي

رسمتها السنون، وقالت شبه هامسة: من الواضح الآن أنّك استسلمت للقدر، ولم يعد يهمك أن نكون معًا .

تلألأت عيناه في الضوء الشاحب من الضوء الخافت الآتي من الحجرات المجاورة، وابتسم في وجع ووقار:

أنت تعلمين أنّي لا أستسلم بسهولة .

ماذا إذن ؟ لقد وهنت عزيمتك ؟ –

– هناك حلٌّ وأنت تعرفينه جيّدًا، وأنا تركته ليكون الاختيار الأخير .

الهرب، قالت وهي شبه ممتعضة:

الهرب حلّ مؤقّت، ولكن نحن

ولفظا معًا الكلماتِ الأخيرة

نريد حلًّا جذريًّا يقطع القضية بتّاتًا .

– هل تفكّر بما قلته لي سابقا ؟ سألته مستغربة .

–أجل، لا حلّ آخر لديّ

أجابته وهي متلعثمة: هذا لا يمكن أن يحدث، من المستحيل ما أفكّر به .

كانت ليلة خريفية، والهواء البارد يتسرّب من الباب الرئيسيّ الموارب يلسع وجنتيها، وهي تقبض على الكتبة بيد حديدية.

وهل لديك حلّ آخر، لنكون معًا نصنع قدرنا ؟

تناولت فنجان القهوة من يد النادل، ووجهها تتعاقب عليه الألوان مثل تعاقب الفصول، ما بين هادئ وثائر، ويتسارع نبض قلبها، لم تصدّق أنّها فكّرت في يوم من الأيام بهذا الفكر الإجراميّ على حدّ قولها.

طوت المنديل بحركة أنيقة، واستوت في مقعدها، وهي تتأمّل وجهه الأسمر الصافي، وقد ارتدى جاكيتا بنيًّا على جينز كحليّ، وتحت الجاكيت قميص أبيض، وقد بدا كأحد ممثّلي هوليوود، ورمقته بنظرة عتب ساخرة، قائلة:

لا يمكن لهذه الأنامل التي تمتصّ غضب جسدي، وتهدّئ ثورته، وتعزف موسيقا الحياة أن تخطف الحياة من شخص آخر.

– للأسف أنا غريق يا عزيزتي، وعندي من اليأس ما يدفعني إلى التكلّم اعتباطيًّا.

إنّ طيفك يتبعني كظلّي، وعذري القاهر يمنعني عنك، سنحاول من جديد، وننتظر، لعلّ الأقدار تجمعنا معًا دون أن نلطّخ أيادينا بجريمة ما في حقّ من نحبّهم.

استشعرت الارتياح في نبرات صوته، وهو ينظر إليها بعين الشغف والحبّ،

وقام من على مقعده متّجهًا نحو النافذة المطلّة على البحر المترامي الأطراف، لا نهاية ولا بداية له، والموج يضرب الصخر بقوة كما أمواج الحنين في صدره.

النوارس تحلّق على طول الشاطئ الذي خلا من المارّة ما عدا بعض الصيادين الذين يرتقون شباكهم، ويغسلونها بعد ليل بدا دون صيد يذكر. تبعته بنظرات شفوقة، وأمسكت يده بحنان، ومعًا صعدا إلى الطابق العلويّ، إلى غرفتها، وفي عذوبة وهدوء وصخب العشق مارسا الحبّ بكلّ شغف، أشرقت الحياة مرّة أخرى في وجنتيها، وعادت مرة أخرى أنثى، فواصل القدر لم تقف في طريقها، وعناد الأيام تضاءل أمام إصرارها، ومن صميم فؤادها اختارت الحبّ بحماس شديد، ووجدته بين أحضانها، ومعًا مضيا إلى المثوى الورديّ، يلفّهما دفء أنفاسهم، والحلم غد فيه الأماني تتحقق.

بسطت يدها له وهي نصف عارية على السرير الوثير، وقالت له: انظر إلى الموضوع بعين محايدة أو بعين أخرى،

أنت تعلمين أنّ حياتي مهدّدة أجابها وهو يقبّل كلّ إصبع على حدة،

أعلم. . . . أعلم

ماذا إذن، هل عليّ أن أستسلم للموت

أم أبقى في هذا الهروب الدائم والتخفّي المتعب؟

تنهّدت وهي تقبل صدره العاري

الحرب –لعنة الله عليها –لقد جعلت منا مجرمين،

وصرنا ضحايا العنصرية والتحزّب والطائفية في لبنان، هناك نقتتل بين الطوائف، وها نحن هنا في الخارج نعيش قصّة حبّ خرافية، من كان يقول: إنّي أنتمي إلى حركة أمل، وأنت تنتمي إلى الكتائب اللبنانية ؟

عليّ أن أعيش لعنة الآخرين، ولعنة وطن كان ولاء ساسته للخارج طوال عمري، التقسيم الجغرافيّ

تبًّا . . . . كلّ قائد له ولاؤه

وأنت لمن ولاؤك ؟ سألته مداعبة .

ولائي لها

لها ، أجابت بنبرة حادّة .

–لا بل ولائي لهنّ

أجابها .

– تبًّا لك، من هن ؟ وراحت تضربه بالوسادة وهو يضحك بهستيريا .

–يا قبيلتي أنتِ وكلّ حزبك أنتنّ اللواتي ما رست الحبّ معهنّ منذ قليل .

كم أجهلني، وكم تعرفني .

إن عُثر عليّ يومًا مقتولًا فلا تقفي في المكان، ولا تلتفتي .

صعقها الكلام، واستفسرت: لماذا تقول هذا ؟

-إنّي مراقب، أشعر بالعيون تترصّدني من كلّ حدب وصوب .

أنت تهذي أجابته -

- لست أهذي، أنت لا تعلمين كلّ شيء عنّي .

كلّنا هاربون من رحى الحرب .

حبيبتي الفيلسوفة .

الكلّ يصفح، وينسى، ولكن هناك ما لا يُنسى، ولا يُصفح عنه في بلاد العُرب

ولكن لم يكن لديك أي خيار آخر .

ومن سيسمع في هذه البلاد العربية الممنهجة .

هنا انقطع الحديث، وكان ذكر ذلك الكيان المجبول اسمه بالإثم يصيبهم بالوجل والخوف على الرغم من أنّهما يقيمان منذ زمن بعيد في بلد أوروبيّ، حيث التقى المسلم والمسيحيّ اللذان كانا بالأمس القريب يقتتلان، التقيا حول مائدة واحدة،

راحت تتململ على الفراش إلى جانبه

لن أفرض عليكِ شيئًا

أجابته لا يوجد في حياتك ما تخجل منه،

كما لا يوجد في حياتي ما أخجل منه.

بل يوجد . . . . قاطعها قائلًا: أمامنا الكثير من العقبات. خروجنا من لبنان لم يُنهِ المشكلات.

تعبت قالت له

–وأنا تعبت من التخفّي، أريدك علانية لي، أريد أن أمشي وأنا متأبّط ذراعك في شوارع المدينة، أريد أن أخبر العالم كلّه أنّك حبيبتي.

أنت مجنون بلا شكّ. –

لا أراني سوى العاقل الوحيد في هذا العالم المجنون.

قبّلته من شفتيه، وكأنّ الجولة الأولى من العشق لم تكفِ بل أرادا أن يستزيدا منه، من يدري متى سيلتقي بها؟ من يدري متى يجتمعان في وطن واحد على سرير العشق؟

تساءلت كثيرًا وهي ترتدي ثيابها في ذلك المساء، وتستعدّ للعودة إلى منزلها في المدينة المجاورة. متى ستشعر بالألفة والحميمية والأمان مرة أخرى؟ وكأنّه قرأ ما كان يجول في خاطرها.

-أعطيني قارورة الدواء من جيب الجاكيت من فضلك .

هل ما زلت تتعاطى الأدوية المسكّنة قالت بدهشة ؟

-نعم، وسأعود إلى المصحّة بعد أن تغادري .

ماذا ؟ ! ! -

-لا تقلقي، كلّهم هناك أصدقائي، وهو المكان الآمن الوحيد ، حيث أستطيع النوم دون خوف وقلق .

شعرت بالقرف والاشمئزاز والشفقة والحنان والغضب في آن واحد .

ضمّته إلى صدرها ، لقد تركت الحرب من هذا البطل إنسانًا مهشّمًا من الداخل، بعد ما لاقى على يد دولته العزيزة من ظلم، فقط لأنّه ولد في منطقة معينة، وأجبرته ظروف معينة أن يدافع عن نفسه، وعن شرفه وأسرته باللجوء إلى جهة معينة طلبًا للحماية والعتاد والأكل .

ولكن رحى الزمن تدور، وتنقلب الأحداث، ومن كان عدوًّا أصبح صديقًا ، ومن كان صديقًا أصبح عدوًّا ، وأُرغم كما أرغم الكثيرون على ترك بيوتهم في ليلة كان القمر فيها متّشحا بثوبه الأسود ، وكانت السماء مكفهرّة من غبار الطرقات التي كانت السيارات تنهش الإسفلت فيها مختلطة بأنفاس ودموع المتروكين في البيوت القليلة المتفرقة وسط

صراخ الأطفال، ومسبّات الشيوخ وصلوات الأمّهات وتردّد الأنات في صدور الحبيبات .

كانت ليلة سجّل فيها التاريخ بصمته على جنوب لبنان وعلى قريته بالتحديد ، لم يفرق الرحيل بين مسلم ومسيحيّ ودرزيّ، الكلّ طالتهم لعنة الغدر ، وتُخلى عنهم يومًا إلى هذا اليوم الذي وجدوا فيه أنفسهم خارج أرضهم، وخارج وطنهم، ما الوطنية الآن ؟ سؤال لا كته الألسن طويلًا ، أمّا زينب وسليم فكان لهما رؤًى أخرى، فالوطنية هي اتّحاد روحين وجسدين في فكر واحد على سرير العشق .

تعويذة امرأة تعتذر

اسمه لا يهمّ الآن، مع أنّ الاسم هو ما يمكن أن يميّز كلّ إنسان عن الآخر برغم أنّ كثيرين يحملون ذات الاسم، المكان حوض السباحة، اللون أبيض مع شعر خفيف أبيض ولحية خفيفة، أزرق العينين، هادئ القسمات كهدوء بركة السباحة وهي خالية من البشر. الكلّ في حركة لولبية، وضجيج الموسيقا في كلّ مكان، هناك من يرقص، وهناك من يصرخ، وهناك من يقفز، وآخر يحمل بين يديه ابنه يرميه في الماء، يحاول أن يعلّمه فنّ العوم. هو يقف وحيدًا في جانب من جوانب البركة يتأمّل الناس طورًا، وتارة أخرى يشيح بنظره نحو المحيط المقابل، ربما من هناك استمدّ لون عينيه، من يدري؟ تجاوز الستين، يبدو وحيدًا جدًّا، لدرجة أنّه تعرّف إلى زوجي مبادرًا إياه بالتحية، لماذا اختار زوجي؟ استغربت حين رأيتهما معًا، أعلم أنّ زوجي رجل اجتماعيّ، يتعرّف بسرعة إلى محيطه والنّاس بعكسي تمامًا، فأنا لا أبادر أبدًا بالتعرّف، المهمّ، ليس هذا ما لفت نظري، وليس هذا ما شغلني، إنما حين قادني الفضول، لأعرف مَنْ شغل زوجي، واندمج معه بالحديث تحت الشمس الحارقة في منتصف ذلك اليَوْم الذي تتعدّى فيه درجات الحرارة ٩٠ فهرنهيت. اقتربت منهما، وعرّف زوجي هذا الغريب عني: زوجتي. أهلًا قلت وجون مشيرًا إلى

الرجل الغريب، مددت يدي بتحفّظ حين رأيت يده تمتدّ نحوي، وبصعوبة سلمت عليه، هادئ جدًّا، وصوته أشبه بالهمس، ما أثار حفيظتي، ولَم يعجبني، ووقعت في شرك أفكاري وخيالي المريض، لا أعرف هل هو مفعول الشمس؟ هل يمكن أن تكون قد تمكنت مني؟ وساح عقلي في رأسي، وخيالي أصيب بوعكة صحية، حتى همست لزوجي: مَن هذا؟، ولماذا تتحدّث إليه؟ يبدو لي أنّه أحد المثليين، زجرني زوجي بنظرة أرعبتني، واستغربت كيف لم ير ما أراه، وأكمل الحديث معه. طبعًا أنا تركتهما، وهربت إلى الناحية الأخرى من حوض السباحة، خجلة من أفكاري ومرتبكة، لعلّه يفهم لغتي، وسمع ماذا قلت عنه، اوه يا للعار، كان يجب أن أسكت حتى نكون أنا وزوجي وحدنا. كأنّ هذا الغريب شعر أنّي لم أستسغ الوقوف معه، فاعتذر من زوجي، وترك حوض السباحة متّجهًا إلى الظلّ، أو هكذا خُيّل إليّ، وأنا ما زلت أرقبه بطرف عيني بين الحين والآخر، حتى سمعت زوجي يقول: ماذا دهاك؟ إنّه رجل متزوج، تلك هي زوجته، وهذه ابنته!

ممم، الزوجة لا تتعدّى الأربعين، وكان قد أخبر زوجي أنّه التقى بها في لندن، وهي من أصول مكسيكية، كلّ شيء مختلف بين التقاليد والأعراف، هكذا علّق هذا الغريب على زواجه. أسكتلندي ومكسيكية. مممممممم، يبدو أنّ الشمس قد أخذت

مأخذها مني، ورحت أتخيّل أشياءً لا وجود لها، فكر الإنسان المريض. أليس جميعنا نقع في هذا الفخّ؟ فخّ الحكم على الآخر قبل أن نعرفه من مجرّد النظر إليه، لم عنف مخيلتي وأفكاري، وفِي ذات الوقت شتّت فكري وذهني هذا الإنسان الغريب. هل لأنّنا لم نتعوّد أن نرى رجلًا يتكلّم بصوت خافت وفِي نعومة وسلاسة في شرقنا؟ حيث إنّ الرجل يكون رجلًا بمدى ارتفاع صوته كي يثبت رجولته ووجوده، ربما.

شاء القدر أن نلتقيه في الْيَوْم التالي، وكان وحده، فعرضت على زوجي أن يكلمه، أريد أن أعرف عنه أكثر، حشرية، هههههمممم، شيء جديد أكتشفه فيّ، قلت: لا بأس، لن ألوم حشريتي الْيَوْمَ فقط، هي كي أصحّح وجهة نظري عنه، لأنّ ضميري أنّبني طيلة يوم أمس، وأحسست بعقدة الذنب. بادره زوجي بالتحية، فاقتربت منهما، وكان يشرح لزوجي رحلة قام بها إلى الكهوف المجاورة للفندق، وكيف خاب أمله في المنطقة، وإنّ المكان لا يستحقّ ما دفع به، كان متحمّسًا بعض الشيء، وأضاف قائلًا: يكفي أنّ ابنتي قضت وقتًا ممتعًا، وهذا هو هدفي فقط إسعاد ابنتي.

رجل في عمر الـ ٦٢، نظرت إلى عينيه، فوجدت نفسي في منفى أزرق محيط من زحام المتناقضات، وليس هناك من نافذة يستطيع الإنسان أن يعبر إلى داخل الإنسان كعينيه، هناك مفردات قادتني إلى أبعد من صدى الكلمات التي ينطق بها. رأيت إنسانًا منسيًّا،

خطاه في هذه الحياة تسير بلا هدى، لا يرى إلا طيف ابنته، نسي ذاته . أشهد من تلك العيون أنّ الروح غادرته وهو ما زال حيًّا . ما زال يتكلّم بذات النبرة الهادئة، وكم تعجبت حين عرفت أنّه من أصول أسكتلندية، وهم شعب صخب عادة يحبون البيرة ومشروب الروم .

هكذا جرى الحديث بسلاسة عن أصول كلّ منا ، نحن من لبنان، زوجي من أصول فينيقية، الفينيقيون من ابتدعوا الحرف وبناء السفن، كانوا تجارًا والسباقين في فنّ الصّباغ الأرجوانيّ . قال كم هو عجيب، لقد بحثت عن الأصول الاسكتلندية، علّني أجد شيئًا في تاريخهم وفي سيرتهم مميزًا ، فلم أجد سوى أنّهم كانوا أول المبتكرين لفنّ التعذيب، وأضاف، صعقني ما وصلت إليه، وأحسست بالخجل، ولكن هذه هي جذوري، نبرة الحزن والأسف ترافق كلماته، أردت أن أخفّف عنه فقلت : في كلّ حضارة هناك من هم فنانون في تعذيب النفس البشرية، فقال: نعم، ولكن لا بدّ من أن يكون هناك شيء إيجابيّ أيضًا ، كان يبتسم وهو يصغي بكلّ حواسه . أيها الغريب الذي تعرف أين ومتى تصغي، ما هي حكايتك ؟ وما هي سيرتك الشخصية ؟ أردت أن أرى ما بداخله، هل هو صافٍ كما يتجلّى أمامي ؟ هناك من يرى ما تراه العين المجرّدة، ولكني أردت أن أرى ما لا يُرى، كي أشهد بالحقّ، ولا أظلمه فيما بعد .

إنّه كاتب، أردت أن أصرخ، أن أقفز، ولكنّي أمسكت ذاتي، لعلّه مثلي يدرس الوجوه، ويستمدّ مداد حبره من عيون البشر، يكتب أحزانهم وأفراحهم، يدخل معابد أرواحهم، ويتقمّص حكاية كلّ واحد منهم، ليضع مولوده من بنات أفكاره وقطعة من قلبه في قالب الحكاية، أضفت قائلة: ماذا تكتب؟

- أنا كاتب سياسيّ.

تعجّبت أكثر، عادة ما نرى الكتّاب والصحافيين في شرقنا يتبجّحون، وكثير منهم أرادوا لو يضع على صدره بطاقة كتب عليها: أنا الكاتب الفلانيّ للتباهي، وهذا الإنسان بكلّ بساطة أدهشني، أردت أن أبكي، ولكن صوت زوجي أيقظني حين قال: زوجتي كاتبة أيضًا.

أجابه الغريب ناظرًا لي: حقًّا، أيّ نوع من الكتابات تكتبين؟ تردّدت بالإجابة، فسبقني زوجي، وقال: هي في صدد نشر كتابين في الأيام القليلة المقبلة.

عن ماذا؟ سألني مرة أخرى مردّدًا وراء زوجي: كتابان، هذا رائع. قلت وأنا أحاول أن أرتّب أفكاري: كتابان في آن واحد، هذا كثير في عرف النشر، هناك ديوان غزل حواريات، والآخر يتناول عشرين شخصية من الكتاب المقدّس، كتبت حسب رؤيتي لهم. كان يصغي باهتمام قائلًا: ليتني أستطيع أن أكتب الأدب والشعر، لكن لا أستطيع.

قلت: أنت كاتب، ولن يكون صعبًا عليك أن تضع الإحساس في كلماتك، لم يدعني أكمل، وقال: لا أستطيع، ابتسمت لأنّ نبرة صوته الهادئة منعتني عن أن أكمل، أردت تغيير الموضوع حين رأيت أنّ هناك هوة في عينيه أشبه بالهاوية، أين تقيم؟ فأجاب وهو متردّد قليلًا: بحكم عمل زوجتي التي تعمل في السلك الدبلوماسي، فنحن في ترحال دائم، وحاليًّا نحن في واشنطن، قال والحزن خيّم على وجهه، وراح يحملق في السراب، وسحابة من الفراغ هبطت على وجهه، وكأنّه تائه في صحراء يبحث عن الماء.

أردت أن أسأله: أين رحلت في خيالك وفكرك؟ ولكن منعني ذلك الوشاح من الحزن والضياع الذي غلّف وجهه، وأردت بشدّة أن أقتبس له ما قاله محمود درويش:

أيها الغريب هناك ما يستحقّ الحياة، ولكنّي لم أقو على الكلام، وفجأة تغيرت ملامحه، واعتذر، وتركنا في حيرة ننظر إلى بَعضنَا، واتجه إلى خارج حوض السباحة، يسير في هدوء يشبه الألم، والتفت لي وهو في منتصف المكان قائلًا: سأصلّي لك، سأضعك على لائحة الصلاة الخاصّة بي.

ارتجفت داخلي، وشكرته مع ابتسامة رضى، ولكن الحيرة تنهشني، وضميري يؤنّبني بسوط لاذع، وفي ذات الوقت مستغربة للطريقة التي تركنا بها، نظرت إلى حيث كان ينظر، فرأيت امرأة، وإلى جانبها فتاة عمرها لا يتجاوز ١٥ سنة، عندها لاحظني زوجي،

وقال: تلك زوجته وابنته، وكأنّه قرأ حيرتي، فأضاف قائلًا: أمس أيضًا حين التقيته أول مرة، ما إن أتت زوجته حتى تركني، وكأنّه لا يعرفني، وكأنه لَم يكن يكلمني من برهة من الزمن، لا تتجاوز الدقائق.

المرأة. فتّش عن المرأة، لم أرد لخيالي المريض أن ينطلق على سجيته، بل قمعته ورحت أختلق الأعذار، خاصة عندما تكلم مع زوجته بضع كلمات فقط، وكانت هي البادئة والقائدة في الكلام. تركته وابنتها، ونزلتا حوض السباحة، أما هو فأخذ منشفة والتفّ بها، واستلقى على الشيزلونغ إلى جانب حوض السباحة، وأغمض عينيه. أستطيع أن أتكهّن من خلال كلامه لزوجي في الْيَوْم الأول حين قال له: أشعر كأنّي أذهب وأنحدر نحو الحضيض.

تعويذة امرأة لرجل، كلمات درويش مرة أخرى تنهش قلبي، أنا امرأة، ولا أحد يستطيع أن يرى ويقرأ فكر المرأة إلا امرأة أخرى، امرأة تحكم بقلبها، تفكر بقلبها، تحبّ بقلبها، تعشق بقلبها، وهي مجرمة بقلبها ومسيطرة بقلبها ومستبدة بقلبها، وسيدة بقلبها، وملكة في مملكتها بقلبها، مشبعة بالخصوبة في كلّ المواسم.

هكذا هي المرأة التي تزغرد في مأتم ابنها، وتضحك على خيانة زوجها، وتبكي على قطّة مشرّدة.

في المرة الثالثة حين رأيته على العشاء يجلس إلى المائدة مع زوجته وابنته لم أرد لقلبي الوجع، أردت تجاهل وجوده، وكتمت حشرية المرأة بداخلي، وهمست لنفسي: لعلّه يوم غد يرى الحياة بغير اللون الرماديّ، وكأنّي أهمس هذا الكلام لذاتي. لم أرد الاعتراف بلدغة عقرب التشابه والاختلاف. أحسنت صنعًا، ربتت على كتف أفكاري، صقلتني حكاية هذا الغريب، كنت مثل الجميع من حولي، ولدت في مجتمع تعوّد الحكم على الآخر من مجرّد النظر، أنا الآن أعتذر، وكم أودّ لو أستطيع شكر هذا الغريب، ولكن أريد بشدّة قمع النهاية.

كل الحكاية أنني كنت أذكى منه

قالت وهي تبتسم لم أستوعب القول، فسألتها: ماذا تعني؟ أجابت: كنت أكثر حنكة منه وأكثر دهاء، لذا لم يستطع أبدًا أن يكشف ما أخفي عنه، وكنت دائمًا بنظره الضحية. طبعًا في البداية كان هذا يؤلمه، ولكن مع مرور الأيام وانشغاله بالملذات في علاقاته وإهمالي له وغضبي عليه جعله لا يشعر بأيّ شيء تجاهي إلا بقليل من الخوف من أن أتركه يومًا فيفتضح أمره أمام معارفه، لأنه الورع التقيّ الماسك زمام التقاليد والشرف من الألف إلى الياء، ثمّ جلست وتنهيدة عميقة خرجت من صدرها وكأنها سكين تريد أن تخرج مذبوحة بالألم. نزف ووجع كلّه اجتمع في نفس امرأة.

جلسنا نحتسي القهوة، لم أجرؤ على أن أسأل أيّ سؤال آخر، أمسكت علبة التبغ، أخرجت واحدة منها، وأشعلتها بأصابع مرتجفة تحت صقيع الوجع، ونفثت الدخان في أجواء الغرفة، وعدلت جلستها رجلًا على رجل، ترتدي بنطالاً أسود، كشف كاحل قدمها الذي زين الخلخال الذهبي الناعم الذي ترتديه، ومن فوق قميص مشجر بكلّ ألوان الربيع، ونظرت اليّ بعين ثاقبة مبتسمة قائلة: طبعًا تريدين معرفة عما أتكلم، فأنا أرى الدهشة تملأ عينيك، والأسئلة تتزاحم على شفتيك، ولا جرأة لك على السؤال، أو لا

تعرفين ماذا تسألين . طبعًا كانت على حقّ أمام جبروت هذه المرأة شعرت كأني صعلوك صغير متطفل على الحياة وخبرات الحياة، امرأة لم تتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، ولكن الحياة والتجارب أعطتها حكمة ابنة الخمسين وأكثر . ابتسمت بدوري، وقلت: ها أنتِ مرة أخرى تضعين النقاط على الحروف، أنت محقة . لا أعرف من أين أبدأ، لذا سأترك لك دفة القيادة، قهقهات علت من ثغرها ، وقالت: لا بأس، الكلّ يضع دفة القيادة في يدي، باعتقادهم أنهم يؤدون لي خدمة، ولكن في الواقع إنها أكبر مسؤولية عرفتها في حياتي، حين تكونين أنتِ من عليه اتخاذ القرار في الحياة في المنزل، العائلة، الخروج الدخول، الفواتير المتكدسة، وأكبرها وأهمها قرار كتب على الورق منذ بضع سنين بإرادتك، واليوم كيف ستتعاملين معه بمحض إرادتك .

سأخبرك بالإيجاز، لقد كنت أكثر حنكة منه، لأني عرفت كيف أخفي عنه العلاقات المتعددة التي انغمست بها في خلال السنتين الماضيتين حتى قرفت من نفسي، وتمنيت لو يكشفني، ولكن لم يحصل، لذا استدعيتك لتكتبي، علّ هذا الوجع وهذا الحمل الذي يثقل ضميري وروحي وقلبي ينزاح عن أكتافي . لقد عرفت وبطريق المصادفة أنه على علاقة بامرأة أخرى، وهنا انهارت الدنيا أمامي، ليس لسبب الخيانة بحد ذاتها مع أنها مصيبة

كبيرة، وتكررت مع أكثر من امرأة، ولكن أن تأتي منه هو بالذات الذي كان مثالاً للأخلاق الحميدة والشرف، هنا كانت الكارثة.

كان يحمل شخصية مزدوجة، لقد كان يعتبر مسك يدي وتقبيله لي أمام الناس حتى أمام أولادنا عيباً.

سكتت، واغرورقت عينها بالدمع، ونفثت دخان السيجارة بقوة هذه المرة وكأنها ثور مجروح في حلبة مصارعة الثيران.

قالت: لم أعرف كيف أتصرف، لذا لم أوجهه في بداية الأمر، ورحت أتابع كلّ تحركاته، وأعطيه الفرصة أن يكون وحده، كي يتسنى له كتابة ومحادثة من يريد وعلى هواه، وهو يعتقد أنني الحمل الوديع. لم يكن يعرف أنّ قسمات وجهه ونظرة عينه وتمتمات شفتيه وحركة حاجبيه كنت قد درستها عن كثب، وكنت أعرف كلّ ما يدور معه من وجهه، ليس هذا فقط، بل حين كان يركض إلى الحمام كنت أعرف أنه مثار، ويريد إفراغ ذكورته.

صدمتي، قالتها ووجهها ممتقع تعلوه علامات القرف أكثر مما علت وجهي علامات الدهشة، أخذتني بصراحتها إلى الذهول المطلق، تعرفين ما أعني، تسألني بجدية واحتداد، أجبتها: نعم. مع إيماءة من رأسي نهضت من مقعدها، وكأن أفعى لدغتها، وراحت تذرع أرض الغرفة بخطوات متثاقلة، وأنا ألاحقها بعين التفحص والترقب بانتظار

القنبلة الثانية التي ستلقيها . لم أنبس بحرف، وعملت على أن اتركها تكمل وحدها . بعد أن هدأت وتماسكت عادت إلى مقعدها الوثير، أطفأت سيجارتها التي لم تكملها بحركة عصبية، ورشفت قهوتها وقالت: مساكين هم الرجال، لقد فاض بي الكيل عندها يا عزيزتي، وأردت تلقين زوجي درسًا لن ينساه، فاتحته بالموضوع، وعرضت عليه كلّ الصور والفيديوهات التي كان يتبادلها مع بنات الهوى، فاستاء كثيرًا مني، كيف أتجسس عليه. هل تتخيلين هذا ؟ استاء لأني كشفته لا لفعلته، وفي أحرج الأوقات التي كنت بحاجة لرجل إلى جانبي، كان إلى جانب كلّ الساقطات .

والطامة الكبرى أنهنّ بدأن يبتززنه ماديًّا ، عندها لم أعد أتمالك نفسي، ساقطات ويدفع لهنّ من أمواله، أموالي وأموال أولادي، حنقت عليه كثيرًا ، وشتمته بكلّ أنواع الشتائم التي لم يكن يتخيلها ، ولم أتخيل أنا نفسي أن اقولها مستخدمة كلّ التعابير القذرة التي كان يتبادلها مع ساقطاته .

لم يحاول ولم ينكر بل اعتذر معترفًا بكلّ وقاحة . سامحته، صدقته في بداية الأمر، مرض ودخل المشفى، وكان قد أشرف على الموت، ولكن نجا ، وعندما استطاع الكلام طلب هاتفه وطمأن عشيقته التي كان يمدّها بالمال . واجهته، وعدني أن يتوقّف عن تصرفاته . طبعًا لم أصدقه، ورحت أبحث عن فرصة للانتقام، وكان شرّ انتقام . بدأت بدوري أفتح

المجال للرجال كي يتغزلن بي، وما أكثرهم وما أشهاني، ورحت أعبث بمشاعرهم، كي أنتقم من زوجي، وهكذا من رجل لآخر، أنتقم منهم شرّ انتقام طيلة الثلاث سنين الماضية، نعيش تحت سقف واحد، ولكن لكلّ منا علاقاته، أنا أعرف كلّ شيء عنه، وهو لا شيء يعرف عني، فيما كنت أوقاتًا كثيرة أهدّده أني سأنتقم، وأقيم علاقات فعلية لا يستطيع هو حتى أن يفعلها، لأنه جبان، وهذا التهديد لم يردعه، بل آلمني ما آلت إليه أحوالنا، كلّ منا يبحث عن الحبّ، في غير هذا المنزل الفخم الذي ترينه. نعم لم يصدقني، ولم يكشفني، فتعبت من ثقته الزائدة.

أنا إذ طلبتك، أريد أن أبوح بما أحمل، علّني أرتاح، وهكذا أمضي إلى قبري بسلام كما تعلمين، ويجهل هو أني مريضة في أواخر مراحل السرطان، المرض الخبيث الذي رفضت أن أعالج منه. لا أريد أن أحيا وأنا أرزح تحت ثقل الغشّ والخيانة والوجع والألم.

هذه الأخير –أعني المرض– كان صدمة لي، لا أعرف كيف توقعت أني أعرف بمرضها. سكتتُ، لم أعرف ماذا أقول، وهي رأت حيرتي، فرمقتني بنظرات الشفقة وكأني أنا من احتاج للشفقة، وقالت: أنا قوية، لن أدع أحدًا يحنيني، ولكن إياك أن تثقي برجل، اكتبي كلامي، وليكن عبرة للفتيات. لا تتزوجن من رجل، سيخدعكنّ، ولا تبقين مع رجل لا يربطكنّ به سوى قصاصة ورق.

بنصر وقبلة

دعيني أقبل هذا البنصر، أخاف عليه من أصابع اليد، هو صغير لا حول له ولا قوة، أشعر كأنه يشاطرني الضعف أمام سطوة عينيك وقلبك، قال وهو يشدّ على يدها، وفي عينيه شوق يتوسّل أن تدعه يقبل إصبعها الصغير، حائرة انزوت في صمتها، حواء بكلّ قوتها وجبروتها لم تدر ماذا تقول، أو كيف تردّ هذا القلب الجائع الذي أحبّها دون قيد أو شرط، شعرت لأول مرة بضعف أن تأخذ القرار، أن تصفعه بالرفض، أو تشفق عليه وتدعه يداعب يدها في حضن يده ويقبل ليس البنصر فقط بل كلّ أصابع يدها، يدها التي لم تشبع من قبلات حبيبها الغائب البعيد، امرأة نزف قلبها لاسم واحد، وهتفت روحها لإنسان واحد، وإليه اشتياقها، كلّ حنين قلبها لصاحب العيون الداكنة، ذلك الذي أشعل البراكين في قلبها من قُبلة، ماذا لو كسرت القاعدة مرة واحدة؟ ماذا لو اشترت سعادة هذا الإنسان بقبلة لأصبع يدها؟ راحت تطوي أفكارها تحت رعشة لمساته، وهو ينتظر منها الإشارة، يا ربّ ما هذا التيه؟ سحبت يدها من حضن يده بقوة، لا تستطيع أن تشتري سعادة شخص على حساب قلبها الذي يحنّ للحبيب. ركضت في الممرّ الطويل وكأنّها تفرّ من وحش يطاردها، تريد الهروب إلى أبعد ما يمكن عن هذا الإنسان، لا تريد أن ترى

بقايا قلبه الممزّق المسحوق، لم ترد أن يحبّها، ولكن من يستطيع أن يمنع المشاعر عن الإنسان؟ من يستطيع أن يقول: أين ومتى ومن نحب؟

تركته في وسط الطريق مشدوهًا ومأخوذاً من المشهد، شاء قلبه وأحبّها وباع الدنيا وتبعها، ترك كلّ شيء، وجلس إلى جانبها في ذلك المساء الوحيد، في معبد الكرنك، يا له من سحر حلّ عليه، لم يكن يعلم أنّه سيحبها ذلك المساء، ضمها إلى صدره. كانت هي سيدة الأسطورة الخارجة من بين أعمدة الزمان القديم، تبحث عن هيكل ومعبد كي تقدم الذبائح للآلهة، وكان هو هناك. دخلت روحها في صدره، وكان المعبد ساحر مدجج بكلّ أنواع أسلحة الدفاع، وكان أن اخترقت كلّ تلك الحواجز إلى رجولته، إلى روحه. يا أيتها المرأة الطالعة من هياكل الأقصر، على أكتافك تحملين قصص الحبّ والتاريخ، من أنت، ومن أين أتيت؟

تركته وحيدًا، عيناه تائهتان خلفها، ورجولته تتصارع مع كبريائه، لم يكن يوما يفكر أن قلبه سيهفو كعصفور وراء امرأة، الويل، ما هذا العشق الذي ذراه؟ أريد تقبيل البنصر، لن أكتفي به، الخلخال أيضاً يدعوني إلى مائدة من العشق. أيتها المرأة التي اخترقتني من الألف إلى الياء، كيف سأعود خاو اليدين فارغًا دونك؟ كيف سأكمل حياتي؟ سار في الطريق الطويل المحاذي لنهر النيل، لا يسمع سوى أزيز صراصير الليل وعجلات الحناطير

وأصوات الأطفال الذين يلعبون أمام الهياكل الممتدّة على ضفتي النهر، إلى أن وصل إلى مقعد خال. جلس عليه وهو يراجع في فكره ساعة اللقاء، وحياته في خلال هذه الأيام القليلة الماضية. يا له من أسبوع حافل، ويا له من حضور كاذب.

دخلت غرفتها مسرعة، وارتمت على السرير الوثير، كلام فارغ، كلام فارغ أن تهب السعادة والحبّ لشخص تشعر نحوه فقط بالشفقة، إنه تخلف، وراحت تخلع ثوبها الأسود الطويل، وارتدت ثوب النوم، وقد تسلّل النوم إلى جفنيها. استسلمت للحلم، لا تريد أن ترى أشلاء قلبه، لم تدعه أن يحبّها، لم تطلب حبّه، ولن ترضخ لتأنيب الضمير، راحة بالها قبل كلّ شيء. قد يملك كلّ شيء، ولكن لا تريده، هو يريدها وهي لا تريده، لم تجتمع الإرادتان، إنه يعيش في زمن غير زمانها، وقلبها يعيش في كنف رجل آخر، هذه كلّها أشياء لم تكن في حسبانه، ولكن يا سيدتي أنا أحبّك لذاتك، لا أريد أي شيء سوى أن أحبّك، دعيني أحبّك، وأقبل البنصر، وهذا جلّ سعادتي.

ثأر

علا صوت أختي وهي تعدّ شنطة البحر: هيّا، لقد تأخرنا، نريد الوصول إلى البحر مبكّرًا. جمعتُ بعض الثياب، حشرتها في شنطة الظهر الصغيرة التي ترافقني منذ اليوم الأول لرحلتي. ركبنا السيارة الجيب التي راحت تشقّ الزواريب الضيقة للمدينة، ورائحة السمك والعفن تستقبلنا من كلّ حدب وصوب حتى وصلنا الميناء. وهناك كان بانتظارنا شابّ أسمر اللون من أهل البلد على اليخت الأبيض، لوّح بيده لنا، وراح يساعدنا على صعود اليخت الفخم.

أصوات الصيادين المختلطة بالموسيقا الأفريقية المحلّية الممزوجة برائحة البؤس والتعاسة المنبعثة من جانبي الشاطئ جعلتني أشعر بالغثيان، أكوام البشر تتكاثف بصورة تصاعدية كلما اتجهنا نحو الأعماق، وأنا أحملق بذهول في المياه اللزجة، وأكياس النايلون العائمة تسابق مراكب الصيادين الصغيرة باتّجاه الممرّ الواسع نحو المحيط. هنا مركب يحمل مختلف أنواع الأعلام، وعليه خمسة أشخاص منهمكين بإعداد الشِباك، ما جعلني أشعر بالدوار والغثيان عندما رنّ صوت أختي قائلًا: سنأكل اليوم أفخر أنواع السمك. يا إلهي أيّ أنواع السمك سيكون؟ لم أنبس بحرف، ورحت أتأمّل اليخت المنمّق الأبيض، وما

حولي من مراكب أكل عليها الدهر وشرب، وصبية نصف عراة يتراكضون باتجاه المراكب، يسابقون رطوبة الأجواء نحو المحيط الواسع، فرحت أغنّي: عندك بحريّة يا ريس، كي أطرد شبح الاشمئزاز وصورة السمك الذي سنتناوله على الغذاء اليوم. ومن البحرية إلى شط إسكندرية يا شطّ الهوى، وأختي وأصدقاؤها يصغون بعجب آه يا إسكندرية ويا هوى إسكندرية وبحرها الصاخب كما روحي في الزيارة الأخيرة.

دقائق بعد ترك الميناء، توقّف المركب في عرض البحر. ما الذي يجري هنا؟ سنغرق في هذه المياه اللزجة ستبلعنا، وقد خيل إليّ أنّ الموت أقلّ فساداً وأنظف، طردتُ الفكرة، وقلت: إن كنّا سنموت، فسوف يأكلنا السمك. وفي النهاية سوف نؤكل من أولئك الأطفال الراكضين بمحاذاة الشاطئ.

سيحصلون على وجبة شهية من اللحم الأبيض. تبًّا لخيالي المريض. أهو تأثير الأرواح عليّ، قد أعاد لي صور البيض المهاجرين الأولين لهذه الأرض، حيث كانوا طعامًا للزنوج؟ دقائق وعاد اليخت إلى التحرّك، وانفرجت أساريري، لن أكون طعمًا للسمك، ولا للأطفال الجياع على طوال الشاطئ.

رويدًا رويدًا بدأت مظاهر البؤس بالانحسار، وامتدّ المحيط أمام أنظاري يحمل نسمات باردة منعشة، كنت أحتاج إليها، ولاحت من البعيد غابات كثيفة، وبدأت الصورة تميل

نحو التفاؤل مع السفن الكبيرة النائمة في المرفأ التجاريّ من شتى أنحاء العالم، وبدا لي البحر الآن مختلفًا، وكأنّي خرجت من ساحل العاج إلى إحدى المدن الأوروبية.

رحنا نمخر عباب المحيط إلى أن وصلنا إلى جزيرة عذراء لم تعبث بها يد الإنسان بعد، إلا بشكل قليل وحضاريّ.

استقبلنا القيمون على المطعم، ورحبوا بنا، وموسيقا البهجة تملأ المكان. قادتنا فتاة إلى المسبح الخلفيّ بعد أن اتّفقنا على وجبة الغداء السمك. لن أسمح لخيالي المريض أن يعود بي إلى نقطة الصفر.

رقصنا قليلًا حتى أُعد الغذاء، أكلنا السمك المشويّ مع الموز المقليّ والسبيط، لم يكن في المكان غيرنا، وعمال المكان من الزنوج الذين يعملون بصمت يشوبه صوت الموسيقا الصاخبة من جهاز التسجيل الذي شغلوه من أجلنا، وشجر جوز الهند تظلل المكان.

كم تمنّيت أن أنام هنا، وأن يكون طريق العودة مختلفًا. طلبنا القهوة وبيني وبين اليأس والبكاء قيد أنملة، ولكن أنا مدعوّة، وعليه لا بدّ أن أستمرّ في ارتداء البسمة والفرح على وجهي. الطعام أشهى ممّا تصورت، وختمت بفنجان قهوة، وقرّرت النوم في طريق العودة لئلّا تعاودني الأرواح، وتقلق شهيتي، مطالبة بكلّ من كان السبب والثأر منّي.

بريجيت

سألت عن بريجيت، وأنا في زحمة السوق. تذكّرت أنّي أعرف فتاة زنجيّة كانت تعرف باسم بريجيت. أول مرة تعرّفت إليها، لم أكن أتجاوز التاسعة من عمري وهي في الرابعة عشر. كانت تحمل قسمات سوداء حالكة جدًّا، وخدّين بارزين، وعينين سوداوين واسعتين، وشعرها الأشعث كنت أحار كيف المشط يجد طريقه إليه؟؟؟.

قدّ رفيع، ممشوقة القوام تمشي في خطوات سريعة. لمحتها من خلف الباب، عندما كنت برفقة والدتي لزيارة صديقتها، والاطمئنان على ابنتها التي أتت من المهجر حديثًا. كانت ابنة صديقة والدتي قد تزوّجت من قريب لها، ورحلت معه إلى ساحل العاج. هذه الفتاة أتت بصحبتها، وكنت أول مرة في حياتي أرى فتاة زنجية. أكلني الفضول للتعرّف إليها، ولم يكن فضولي أقلّ من فضول أهل القرية. الكلّ يريد أن يعرف قصة الفتاة السوداء، ولماذا عادت برفقة السيدة الآن بعد أن هاجرت إلى بلاد الذهب والعاج، وأصبح لديها من الخدم والحشم والعبيد الكثير؟ لا بدّ من أن ندعوها السيدة. صديقة والدتي لاحظت فضولي فقالت: هذه بريجيت. أعجبني الاسم، فقد قالته بطريقة رنانة. رحت أردّد في سري: بريجيت، بريجيت، وهي في ثوبها المزركش وشعرها الأشعث وأسنانها البيض تطلّ بين

الفينة والأخرى من خلف الباب، ثمّ أردفت صديقة أمّي لأمّي: هذه بريجيت ابنة زوج ابنتي، هناك الرجل لا بدّ أن تكون لديه امرأة تعوله وتخدمه، ونتيجة لهذه العلاقة أتت بريجيت إلى العالم. سألت أمّي عن والدتها، أجابت: لا أعرف عنها شيئًا، ولكن بريجيت تعيش مع ابنتي تمامًا كابنة لها. لم يشبع فضولي حديث الصديقة، ولم تأت بريجيت لتسلم علينا إلا بعد مناداة طويلة من السيدة. كانوا ينادون عليها لتأتي، وقد بدا لي أنّها بضاعة للبيع يعرضونها على الزبائن، شربت والدتي القهوة وغادرنا، ولم أر بريجيت تلك فيما بعد.

الأرض تستدعي أرواح من نعرفهم عندما نزورها، لذا أرض ساحل العاج استدعت روحها، بعد أكثر من أربعين عامًا عندما قمت بزيارة أختي، والتقينا بالكثير من اللبنانيين الذين يمسكون زمام هذه البلد وتجارتها وكلّ المرافق الحيوية. هالني ما رأيت من فقر مدقع في الضواحي، والفتيات السود على أطراف الطرق وفي البساتين بشعرهنّ الأشعث وأسنانهنّ البيضاء وقوامهنّ الرشيق.

منهنّ من تبحث في حاويات القمامة عن مأكل أو ملبس، لاحت لي صورة بريجيت، وسألت عنها هل هناك من يعرف أيّ شيء عنها؟ أين هي؟ أردت أن أراها، خاصّة بعد أن عرفت أنّ السيدة قد ماتت من فترة. تذكرت كلام والدتها أنّ الرجال هنا

يحتاجون إلى امرأة لتقوم على خدمتهم . وفهمت الآن أنّ بريجيت لم تكن سوى خادمة . آلمتني الفكرة، ورحت ألحّ بالسؤال عنها إلى أن أفضت لي إحدى السيدات التي سمعت أنّها ماتت من زمن بعيد . لم تكمل الخامسة والعشرين من العمر، صعقتني الكلمات، كيف ماتت ؟

– بالسمّ .

– السمّ ؟ ! !

–أجابت: نعم السمّ، هنا لا يتورّع الفتيات عن استخدام السمّ عندما يتخلّى عنهنّ الرجل الذي يعشن معه من أجل امرأة أخرى أكثر شباباً وجمالاً ، وهذا ما حدث مع بريجيت .

ولكن كيف الفقر والحاجة والفساد يدفع الكثير من الشابات إلى العيش مع الرجال الأجانب من أجل المال والطعام ؟ وهذا سوق تكثر فيه المنافسات . حزنت والوجع أضنى روحي، ولكن هذه الحال في بلاد ما دون العالم الثالث، بلاد العاج والذهب أكثر البلاد فقرًا في العالم .

آمال

لم أصحُ بعد من مأساة بريجيت، وما أخبرتني به هذه السيدة الشقراء جعلني أجد ذاتي في دوّامة أخرى، ومستنقع آخر من الألم والحزن والاستغراب .

للوهلة الأولى اعتقدت أنّ الأرواح قد تسرّبت إليّ من بين شجر جوز الهند والبابايا ، أو من المياه المحيطة بالمكان الذي أجلس فيه، ولعلّها تسرّبت من عيون التماسيح التي تنظر إليّ بعين الترقّب والجوع .

تلك التماسيح التي تعوّدت نكهة لحوم البشر، بالنسبة لها المكافأة أو الفاكهة التي تنتظرها .

سألت محدّثتي باستغراب: هل هناك من يبالي بهذه المآسي ؟ أين الحكومات، وأين السفارات، ألا تتابع أخبار جالياتها ؟ ضحكت، وقالت: السفارات من فساد إلى آخر . من يهتمّ بفتاة إذا ماتت أو اختفت ؟، ففي كلّ يوم هناك مئات الفتيات يختفين، ولا أحد يعثر عليهنّ، ولا من يسأل . ولكنّي اعترضت قائلة: لم يتوقّف الأمر في هذه الحالة على فتاة سوداء بل تخطّاه إلى زوجة أبيها البيضاء .

أجابتني: يا عزيزتي، إن كانت البيضاء مكروهة ومنبوذة من أقرب الناس إليها فماذا تتوقّعين؟ استغربت الكلام، وكأن محدّثتي قد رأت سؤالي التالي، فلم تنتظره، وأضافت: نعم، منذ اليوم الأول لوصول آمال لم تلقَ الاستحسان في بيت أهل زوجها، مع أنّ قرابة دم تربطهم. لم يكن هناك إلا تلك الفتاة الزنجيّة، لتدافع عنها في هذه المعمعة، حيث الوحدة القاتلة، والغربة التي لا ترحم. الزنجيّة تدافع عن زوجة أبيها أمام أهله !!!،

استغربت. نعم لقد كانت فتاة طيّبة جدًّا في السادسة عشر من عمرها، وكانت تعرف معنى القمع والاستعباد لما رأته في مجتمعها.

سبحان الله، يبدو أنّها رأت في زوجة أبيها الأمّ التي ماتت وهي صغيرة دون أن تراها، فالفتاة تحتاج إلى حنان الأمّ، والسيدة تحتاج إلى الحماية، وكان أن نشأت بينهما صداقة قويّة، وربطتهما المأساة على ما يبدو، ومعًا استطاعا أن يواجها المستقبل المجهول، كما هذه الأدغال المحيطة بهما.

مرّت السنوات، والفتاتان تكبران معًا، تعيشان في ظلّ الخوف الدائم، واحدة من هذا المجتمع الجديد الذي إضافة إلى أنّه رفضها، هي أيضا في قرارة نفسها تألّمت، وراحت تلعن الساعة التي وافقت على هذا العريس الآتي من بلاد العاج والذهب والألماس.

لم تكن تتخيّل أن تعيش في مدن قبائلية، بلاد الحضارة بعيدة عنها كبعد بلادها ووطنها الذي لم تكن تجد فيه فرصة للحياة، وهي من أسرة فقيرة، لذا وافقت على هذا العريس الذي يكبرها بحوالي خمسة عشر عامًا، وكلّها أمل وتطلّع للمستقبل الباهر أمامها .

كم كانت صدمتها قويّة حين وصلت إلى بيتها الجديد مع أسرة زوجها المحاطة بعدة بيوت مبنيّة من أغصان الموز، والأولاد والنساء والرجال شبه عراة، وفي بعض الأحيان عراة تمامًا، منظر لم تعتد عليه .

راحت الفتاة الزنجيّة بكلّ ما أوتيت من قوّة تخفّف عنها، وتحاول أن تجنّبها الاحتكاك بالزنوج والتعامل معهم، وهي سيدة بيضاء ممشوقة القوام، ذات عيون عسلية واسعة، وابتسامة تسلب اللبّ .

أرادت حمايتها في هذه الغابة، وكان الزنوج قد بدأوا في بعض المناطق بقتل أسيادهم البيض ورميهم للتماسيح .

هذه الصداقة بينهما لم تعجب الزنوج الذين تربّصوا بالفتاة، وراحوا يضايقونها مع الوقت، وهي تتصدّى لهم، ولكن إلى متى ؟ حتى مرضت في أحد الأيام، وراحت تتألّم وتصرخ قائلة: لقد وضعوا السمّ لي، لقد وضعوا السمّ لي، كانت هذه هي الطريقة التي اتّبعها المحلّيون في القتل، ولا أحد يردعهم، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في حضن زوجة أبيها

البيضاء، وهذه الأخيرة تنتحب في أسى، ليس لأنّها فقدت عزيزة، بل كانت بمكانة الابنة والدرع والمساعد والأمّ لها، وهنا قرّرت أن تنتفض من بين ركام يأسها وخوفها، وتتحرّى عن موضوع السمّ هذا، وبنت لها علاقات سرّية لم تكن تستأمن أحدًا على سرّها إلّا صديقة لها في لبنان، وكانت تطلعها على كلّ التطوّرات، إلى أن أمسكت بطرف الخيط الذي سيقودها إلى من قتل آمينانا .

يبدو أنّ تحرّكات آمال قد لفتت أنظار بعضهم، وفي ليلة سوداء، والمطر ينهمر كالنهر من كوى السماء، رعد وبرق يشقّ العتم، ويمزّق السكون، صرخت آمال بصوت أشبه بالزئير، وراحت تدور في غرفة الجلوس في حلقات مفرغة، تمسك رأسها بيدها، وتصرخ من شدّة الألم، وما من سميع، وما من مجيب، وكأنّ الأرواح في تلك الليلة طلبت ضحيّة أخرى، كي تهدئ غضب الطبيعة، حتى طرحت آمال جثّتها مدة وسط الغرفة، وسيل من الدماء من فمها الذي تعوّد الابتسام برغم المأساة

مثالية

أخيرًا وجدت المجموعة المثالية، وفضولي سوف يرتوي، عائلة من ثلاثة أفراد، الأب والزوجة والابن ذو السادسة عشر من العمر، أعجبت بهم، لماذا أقول مجموعة مثالية؟ لي أسباب كثيرة ومثيرة، أولًا أسرة تتفق على الجلوس في مكان ما من اختيار واحد، والكلّ يوافق مبتسمًا، على عكس الأسرة التي أتت بعدهم، إضافة إلى الصوت العالي في نبرات حديثهم، وكأنّ جيشًا يتعارك على ضفاف دجلة، قامت الدنيا وما قعدت، حتى انتهوا أخيرًا إلى قرار على أيّ كرسي سوف يجلس الرجل، وأيّ كرسي ستشغل المرأة.

بالمناسبة هذه عائلة من أهل البلد، والعائلة الأخرى أميركية، نعم لقد فاجأني هذا الشيء بالرغم أنّ الزوجة التي لم تتعدّ الأربعين تشبه ممثلات هوليوود، شقراء ممشوقة تمشي بتؤدة وثقة مع دلال رقيق، والشعر المشدود إلى أعلى الرأس يفتح آفاق الوجه المستدير والعنق العاجيّ، وحين استعدت للعوم مرتدية لباس البحر الفيروزي أكاد أجزم أنّ الحوريات لو رأينها لغرن من طلّتها ومن لونها الخمريّ.

لقد حاكت لها الشمس ثوبًا من اللون البرونزيّ، آه يكفي فلقد بدأت أغار منها، ابتسمت لنفسي مع أنّي أملك بعض الجمال مثلها، فالأهم أنّي بنظر من تحبّه نفسي يراني أجمل

النساء، الزوج لا يقلّ جاذبية عن زوجته، يبتسم بين الحين والآخر لزوجته التي تتحدّث إليه برقّة، وهي تمسح كتفيه بالكريم الواقي من الشمس بأناملها الطويلة التي تنتهي باللون الزهري كحديقة ورد، يجيبها بصوت رقيق، ويشير إلى الأماكن التي يريدها أن تزور بأناملها، يلبس نظارته الشمسية، نجم من النجوم الذين نراهم فقط في الشاشات، وحلم طالما حلمت بهم النساء، انتهت من دهنه، أمسك يدها، عاشق لا يريد أن تضيع، وتفلت من يده هذه الجوهرة الثمينة، والحقّ أقول، هي جوهرة، بل زمرّدة في ثوب البحر الفيروزيّ الذي يكشف ثلاثة أرباع جسدها، والأهم يكشف نقش التاتو على كتفيها، امرأة استثنائية. ها هي تخاطب النادل بعينيها ويديها وجسدها، ما أجمل المرأة التي تستطيع التواصل بكلّ حواسها، ابتسم النادل، وغادر، وأنا أرى صورة الإعجاب المنعكسة في عينيه، وأتساءل أمام هذا الجمال وهذه الطاقة: هل يا ترى استطاع أن يحفظ ما طلبت منه؟

ابتسمت للتحليل السيكولوجيّ، أما هي فكطفلة صغيرة استدارت نحو زوجها الذي طبع قبلة خفيفة على شفتيها ما إن استدارت نحوه، ثمّ أخرى وأخرى، لعلّه لم يكتفِ من تذوق العسل من أول قبلة بل أراد أن يُرسخ الطعم، ويرسم خطوط القبلة في ذاكرته للثواني التي سوف تفارق شفتاه شفتيها.

إنّها عائلة استثنائية في زمن غير استثنائيّ، هكذا بشر يحتاجون أن يسجلوا في كتب التاريخ كي يخلدوا، لأنّهم بكلّ صراحة أصبحوا من النادرين جدًّا .

طبعا ربما البعض يقول: إنّي أبالغ، فهناك الكثير من العائلات المتوافقة والمنسجمة، أقول نعم، ولكن الدهشة كانت أنّهم عائلة أميركية حيث الجميع يتّهم المجتمع الغربي وخاصّة الأميركي بالتفكّك والانحلال، وما رأيته في خلال الأيام السبعة التي قضيتها متأملة ودون قصد منّي، هو أنّنا نحن دول العالم الثالث نجدّ مجتهدين في التصلف والتبجح والكلام الفارغ عن السعادة، والسعادة والأسرة والترابط بريئة منّا جدًّا، أعاتب خيالي في كثير من الأيام، وأتهمه بالإجحاف، ولكن هو ليس خيالي بل هو الواقع الذي نحاول أن نخفيه خلف ستار التقاليد، ولا نجرؤ على تسمية الأمور بأسمائها، حتى بين العائلات الكوبية، المكسيكية، الصينية لم أرَ علاقة واضحة كالوضوح الجليّ في هذه العلاقة الأسرية الأميركية .

إنّ السعادة لا يمكن إخفاؤها، والحبّ لا يمكن أن يكون خلسة، فهي كأس يفيض إن وجدت، والباقي ممّا يتشدّقون به على صفحات التواصل الاجتماعيّ، وفي الإعلام من كلام عن العشق والحبّ والسعادة ما هو إلا قشور وتقصير وقناع يغطّي تحته القبح والألم والجحود .

كم أردت التقاط صور لهم، ولكن منعني التجاوز على حرية الآخرين، فعدلت عن الفكرة، وتركت، وقلت لنفسي: دع الخيال يلعب دوره، مع أنّ خيالنا في أحيان كثيرة مهما رحل في عالم اللامرئيّ يبقَ عاجزًا عن أن يصف ما هو واقع، ولأول مرة تغلب الواقع على خيالي. ليسوا من بنات أفكاري بل هم بشرٌ من دم ولحم، ومع طلال مداح وصرخته "وترحل في زمان الصمت" أراني أصمت، وفِي قلبي صرخة على الأيام التي تضيع منّا، وتذبل فيها أمانينا، ونحن منشغلون عن الحياة في محاولة أن نحيا، وعن السعادة بالتفتيش عنها، وعن الفرح في إحصاء لحظاته في خضمّ اليأس.

بين الماضي والحاضر

قاعة الطعام المغلقة، والكلّ جالس على الكراسي في صورة دائرية، الترقّب والخوف والحيرة والتساؤل بدت على الوجوه، صاحب الشركة وزوجته يجولان في المكان، وبين الفينة والأخرى ينظران من النافذة إلى الطريق الأمامية الطويلة الممتدّة أمام الشركة، حيث شجرة جوز الهند تظلّل المكان بأغصانها الطويلة والسيقان العارية، وقد بدت أشجار الموز كأنّها أقزام وطفيليات زاحفة تريد النهوض من بين الأتربة، لتتنفس الهواء النقيّ من ارتفاع مختلف.

الرطوبة خانقة، والمكيّف يكاد لا يفي بعمله في هذه الغرفة، والأنفاس الممزوجة برائحة الدخان جعلت الجميع يشعر بضيق.

وطال الانتظار، وبدت العشر دقائق كأنّها دهر، إلى أن أطلت من بين شجر الموز عربة الشركة، توقّفت أمام الباب الحديديّ الكبير، ترجّل منها رجل في أواخر الستينيات من العمر يشبه الليل في سواده، يحمل بيده حقيبة جلدية قديمة مهترئة، ترجّل من السيارة، وفتح الباب الخلفيّ، ونزلت سيدة تجاوزت الثمانين من العمر، لم تظهر لي ملامحها من النافذة أمامي حيث أسترق النظر، فلم أرَ إلا كتلة من الملابس تسير باتّجاه المدخل.

سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب، انتبه الكلّ له، دخل الرجل، وأفسح الطريق أمام العجوز الشمطاء التي كنت أراها في أفلام الكرتون، ذات البشرة الداكنة والأنف المعكوف والذقن الذي تعلوه الخطوط، والعيون الثاقبة تدور في أرجاء الغرفة تفحص الوجوه، وبحركة آلية من يدها وضع الرجل الحقيبة في منتصف الغرفة، وطلب كرسيًّا، أسرعت زوجة صاحب الشركة بالكرسي، فأشارت العجوز بيدها أين تريدها .

كان الكلّ مشدوهًا ينظر، لم يجرؤ أحد على السؤال أو الكلام عدا هذه العجوز والمترجم الذي يرافقها، لقد كانت من إحدى القبائل القلائل الذين ما زالوا يقطنون غابات ساحل العاج، لم تدخل الحضارة لهم بعد إلا بالأمراض حيث فتكت بهم، ومات من مات، ومن عاش منهم نسي حضارته، وفي ذات الوقت لم يستطع أن يواكب الحضارة الجديدة أو حضارة البيض بأكثر دقّة، فكانوا يرقصون ويتنقلون بين الفرقتين كما القردة ترقص، وتنتقل من شجرة جوز هند إلى أخرى .

فتحت العجوز الحقيبة، وأخرجت منها شرشفًا أسود، بدا لي يصرخ من كثرة الوهن والاهتراء، إضافة إلى شكله القذر، ومكنسة من العيدان والقشّ، ما أثار حفيظتي، هل هي هنا لتنظيف المكان؟ أليس لدينا أدوات تنظيف كافية أو ربما تريد أن تكنس السارق خارجًا بمكنستها .

أردت أن أضحك، وتخيلت الأفلام والكرتون والساحرة الشمطاء المسافرة على عصا أو مكنسة وليلة الهالوين، ولكن الخوف أخذ مأخذه مني كما الآخرين، فالسحر الأسود كثير الانتشار هنا، وهذه العجوز ما هي إلا واحدة من تلك الساحرات اللواتي يستخدمن السحر.

للحظة شعرت أنّها قرأت ما يجول بأفكاري، ورمقتني بنظرة مبهمة، فركت عيني، وعدلت جلستي، ونفضت أفكاري الجهنمية، وعدت أراقب ما تفعله. تحدثت إلى المترجم، فطلب منا الصمت، وقال: سوف تبدأ الطقوس الآن.

حبست أنفاسي والآخرون أيضًا، كنت أسمع نبضات قلبي وقلب السيدة التي تجلس إلى جواري، لحظات ودخلت الساحرة العجوز تحت هذا الشرشف الأسود الكبير حتى بدت لي خيمة، وتحت تلك الخيمة يجلس فيل من أفيال أفريقيا، وبدأت تقرأ وتقرأ، وما بين أنين وصراخ تارة إلى الهمس والصمت تارة أخرى، تنتفض حينًا فجأة، فينتفض كلّ من في الغرفة.

مرّت أكثر من عشر دقائق، كدت أشعر بالاختناق، قالت محدّثتي: أردت لو تنتهي هذه المراسيم، وكان أن رفعت العجوز الغطاء، وراحت تمشي باتجاه أحد الموظفين تحمل بيدها المكنسة، والمترجم يسير إلى جانبها، وقد بدت عليه أمارات الحذر والترقّب، ما

نقل هذه المشاعر لنا . رفعت العجوز المكنسة أمام الموظّف، وسألتها : هل هذا هو؟ وانتظرت لحظات ولا إجابة، وهكذا انتقلت في حركة دائرية تخاطب المكنسة أمام كلّ موظف: هل هذا هو؟ إلى أن انتهت من الجميع، ولم يكن هناك الشخص الذي تبحث عنه . ما إن انتهت من المراسيم والطقوس وفتح الباب حتى ركض الجميع إلى الخارج، واللغط والحيرة والقلق يفترس وجوههم، وبقيت الساحرة وصاحب الشركة والمترجم حيث سأل: هل السارق من الشركة؟

أجابت: نعم

هل هو موجود ؟

أشارت بالنفي

سيدة أم رجل ؟

قالت: سيدة

هل لديك اسم ؟

أجابت: نعم إنّها فلانة تحمل هذا الاسم .

لقد كانت فلانة فعلًا موظفة في الشركة، ولكن في ذلك اليوم كانت خارج المدينة، لذا لم تحضر جلسة استجواب المكنسة هذا .

تمّ الاتفاق على يوم آخر جمعنا به من جديد صاحب الشركة والعجوز الشمطاء الساحرة، وبعد طقوسها والقراءة خرجت من تحت الغطاء ومكنستها بيدها، وراحت تسأل من جديد دون جدوى، إلى أن وصل دور فلانة السيدة، للتوّ أعطت اسمها، راحت المكنسة تلتفّ حول عنقها، والساحرة تصرخ والمترجم يقول: اعترفي، اعترفي، لا يفيد النكران، أنت من سرقت، تمهلي أيتها المكنسة، لا تخنقيها، الكلّ في حالة شحوب وهلع صامت ما عدا الساحرة والمترجم والسيدة التي بدت كأنّها تصارع الحياة، وفي ضيق تختنق، حتى تدخّلت زوجة صاحب الشركة، وأمرت بإيقاف السحر.

توقّفت الساحرة على مضض، وقالت: كان لا بدّ أن نكمل، كي نحصل على اعتراف كامل، أمّا السيدة فلم ترد أن تبتلي بجريمة قتل في شركتها، صرفت الساحرة الغاضبة، أما المرأة المتهمة فراحت تتوعّد بالشكوى والتهديد بمحاولة قتلها، وهكذا السرقة لم تكشف، الأدلة ليست كافية وغير مستوفية الشروط، والسحر الأسود والساحرات لا تقم لهنّ كلمة في الدوائر الحكومية بعكس أرض الواقع الذي يعجّ بهم، وتراهم في كلّ الزوايا والخبايا بين المواطنين والوافدين، لا فرق بين أسود وأبيض، وبين القرن الأول والقرن العشرين.

تناقضات

متثاقلة تحت حملها، وشنط السفر، شنطة حمراء على كتفها، وأخرى سوداء تشدّ كتفيها بقوة إلى الوراء، ترتدي شعرها المسدل على كتفيها كنهر على جبينها .

خانها المنديل الأحمر الذي يحضن شعرها، وهربت الخصلات تقبل جبينها وهي فخورة بحريتها، ومن وراء نظارته عينان تبحثان عن شيء ما، حبّتا زيتون عسليّ تتدلّيان من بين ظلال الرمشين اللذين يحرصان على حمايتها برفق ويلاحظانها بين الفينة والأخرى .

حذاؤها البنيّ المفتوح من جنبيه يحرص على أن يطأ الأرض، ويثبتها بها لئلّا تطير في فضاء المطار، عندها من سيردها، تستقلّ طيارة التيه، تبيع الحاضر وتشتري الحلم، تسير على غير هدى، تدخل المحلات التجارية القابعة في بهو المطار، تبحث بين البضائع المعروضة على شيء ما، كلّ من رآها سألها بابتسامة: هل يستطيع مساعدتها ؟

تردّ بابتسامة وإيماءة من الرأس:

لا، شكرًا .

ما تبحث عنه ليس معروضاً على رفوف المحلات في المطار، ما تبحث عنه لا يباع في أيّ مزاد، ما تبحث عنه هذه المخلوقة التي جاءت إلى هذا العالم بغلطة ارتكبها في ليلة ما

والداها .

أول تحيّة كانت للحياة في صرخة، وكأنّها تبكي وجعها قبل الأوان، مثل موج البحر أفكارها وأحاسيسها تائهة دون ذلك الطيف الذي تبحث عنه .

حاولت أن تجده في وجوه المسافرين، وفي جوازات السفر تبحث عن ذاتها ، ولكن دون جدوى .

جالت في المقاهي، احتست القهوة والكابتشينو، لعلّها ترتق جرح ضياع وتيه، لعلّ الشتاء يتغيّر إلى ربيع، حتى السماء باحت بالمطر حزنًا على الرحيل تشاركها السماء البكاء، وتمطر كالرحيل بغير أوان .

لم يجبرها أحد على هذا العشق بل سارت إليه بخطى متسارعة حين ابتسمت لها الحياة أخيرًا برجل حلّ في قلبها ضيفًا دائمًا سكن، بل أسكنته وأعطته إقامة أبدية، وهي تعرف أنّها فتحت باب جهنّم على قلبها . تعلم مخاطر فعلتها ، تجمعها معه سويعات قليلة، وتباعد بينهما الكرة الأرضية، التاريخ والجغرافيا . سويعات وثلاث قبلات كانت الحياة . صرخت بوجهه ألا تفهم، هذا ما تبقى لي وأنا في مطارات الحنين مسافرة بلا هدف، أحمل تذاكر العشّاق من بلد إلى بلد ، أهرب منّي، أطاردني علّني أجدني، أحملك كالطفل في أحشائي، وأحمل نغمة الصوت مجنونة، أعاني شغب مشاعر امرأة خاطرة في بال

الذكرى.

أنّبها ضميرها، وهي تلمح من خلف الزجاج الفاصل بينها وبين ذاك الرجل الأسمر الذي كانت أقصى أمانيه أن يجلس معها لساعات يتأمّل وجهها، ويسمع صوتها وضحكتها، لم يكن من الرجال المتطلبين أبدًا، يرضيه أن ترمقه بنظرة، أو تقول له نكتة سخيفة، وكانت تستجدي الكلمات، وتكسر برودة الجلسات الطويلة المليئة بشتى أنواع الأحاديث عن العمل والشغل والثرثرة الفارغة، وهي تعرف جيدًا أنّه ينتظر الفرصة تلو الفرصة كي يقفز من حجرة صمته، ليقول بصراحة: أعشقك، ويعود إلى صمته الطويل، كأنّه أحد أعمدة الهياكل المرمية على ضفاف النيل. صامتة، لو أتيح لها أن تتكلّم لقالت الكثير، وكتبت عن الإجحاف الذي مورس بحقّها من أقرب الأقربين من أبناء البلد، رجت في سريرتها أن يتركها وشأنها، فهي في البعد عنه بمقدار قربها من حبيب روحها وعشقها الأوحد، كيف تخبره أنّ قلبها مشغول بسواه، وهي تعلم أنّها ستقضي عليه؟

تركته خلف الزجاج، وسارت في خطى بدت له فراشة تنتقل من زهرة إلى زهرة، وكم تمنّى أن يقفز فوق السور يخطفها إليه، ويهرب لها إلى آخر الدنيا، وهي في دوّامة، وأقصى أمنياتها اتّصال هاتفيّ عبر الأسلاك يحملها على أجنحة العشق السرمدية من شقيق الروح.

سلم الأحلام

من لم يحلّق فوق الغيوم والبحر في الطائرة لا يعرف طعم تسلّق سلّم الأحلام، ولا يشعر بعظمة الخالق وروعة المخلوقات.

نصيحة: بعْ كلّ ما لديك، وعش هذه التجربة الغريبة الشائقة، أن تكون فوق الغيوم والسحاب، لا أن تعيشها في الخيال بل أن تعيش هذا الشعور الذي يسري في أنحاء الجسد، وكأنّ بك مسًّا من عبقر، وجنونًا وتصوّفًا وعبادة، مشدود بالعظمة، خاصّة إن كانت الشمس تميل نحو الغروب، وهي تلقي بأشعّتها الذهبية على أكوام الغيم المتناثر في هذا الأديم الرحب الأشبه ما يكون بأكوام من القطن الصافي المنتوف، أو ثوب عروس معلّق وتحته خميلة زرقاء.

ما أبدع هذا المشهد، تتأمّله من مقعدها بمحاذاة النافذة، الذي دفعت فيه مبلغًا محترمًا، كي يتسنّى لها أن تحظى بالمقعد الواسع.

كانت قد أنهت طعام الغداء، وراحت تحتسي فنجان قهوة شبه باردة لا طعم لها، لونها عتيق وكأنّها باتت في الإبريق من الرحلة المنصرمة.

راحت أناملها تداعب الصورة بين يديها ، وعيناها تجولان ما بين الصورة والمنظر المهيب خارجًا ، إلى أن تهيّأ لي أنّها تبتسم .

أردت أن أسألها ، ولكنّي أحجمت، لم أرد أن أقطع عليها خلوتها أو رحلتها أو صومعتها أو حلمها أيًا كانت التسمية .

مضت ساعة على تلك الدمعة التي حاولت جاهدة أن تخفيها عن عيون الركاب إلى جانبها ، وكان من حظّي أنّها لم تلمحني وأنا أرقبها بعيون مليئة بمليون سؤال .

مسافرة وحدها تجاوزت الخمسين، فيها من الحلاوة والصفاء ما شدّ معظم ركاب الباص الذي أقلّنا من باحة المطار إلى الطائرة، وكنت أخاف عليها من الذكور المحيطين بها لئلّا يهتك أحد حرمة ذلك الصفاء ، ويكدّر نقاءه، ولكنّها كانت تمسك بزمام أمورها في إباء وشموخ، ما جعل الأنظار إليها ترفع القبّعة احترامًا ، ومتى تحركت أفسحوا لها الطريق من الضابط المناوب في شرطة المطار إلى المضيف الذي استقبلها بابتسامة، وقادها إلى مقعدها .

أردت أن أعرف سرّ الابتسامة بعد الدموع التي هطلت من عينيها بغزارة، ولكن لم أجرؤ على السؤال، واكتفيت بأن أرقبها بصمت .

تسافر ما بين فنجان القهوة، وما بين النافذة والصورة التي تحملها على جوّالها، وفي كلّ نقلة كانت هناك قصّة تُحكى، في الفنجان كانت ترى الغيب، وتستدعي قارئ الفنجان، شهل العيون تمامًا كلون عينيها، وكانت تسمع صوته يناديها من بين الحروف:

يا قدّيستي أتابعك بعين الانتظار، أمامك سفر ونجاح ولقاء، والأهمّ هو اللقاء، تبتسم وتكتب بإصبع الحنين:

لم تخبرني عن الرحيل، تركتني أصارع وأصرع منه.

لا يا قديستي أنت أقوى، ولكنّي لم أقوَ على الكلام لئلّا تفقدي حلاوة اللقاء ونكهته، وتستمتعي بما يقدّمه النجاح والحبّ لك، أمّا الصورة التي كانت تحملها في جوالها فكانت تخبرها بأنّه هو هنا لم يغادرها هي روحه، وهو حياتها، ولكن تنحدر دمعتها في وسط الكتابة.

أنت ما زلت داخل برودة الزجاج تقيم أيها الغريب، ينتفض كيانها، وأناملها تهرع نحو شفتيها لاهثة تسير عليها ببطء، كأنّها أمّ رؤوم تريد أن تتفقّد وليدها الحديث، وتطمئنّ على أنّه بخير ودافئ وشبعان في حضنها، تريد أن تتحسّس شفتيه اللتين ما زالتا تحتضنان شفتيها بقبلات كوثريه، تريد أن تتأكّد بالملموس أنّه ما زال يطبق بفمه على فمها العنقوديّ، وأنّ أنفاسه تبثّ الحياة فيها، وتبتسم.

نعم ما زالت هنا شفتاه، حرارة الأنفاس واليد التي شدّتها إلى صدره هنا ، لتسافر وتحملها القبلة إلى العالم الآخر الخارجيّ فوق السحب والغيوم .

تراها سرير العشق المعدّ لها مع الحبيب المنتظر، عروس خارجة من أعماق البحر حيث تلاقى الغيم مع الموج، ورفعها من أعماق البحر إلى العالم العلويّ البعيد عن عيون البشر، لا يقلق خلوتهم، ولا يفسد وحدتهم أحد ، طالما حلمت بعالم ليس فيه سواهما .

وها هي الآن ترى ذاتها في حضنه، والغيم يلفّهما بردائه الناصع، والشمس تنير لهما المكان، والبحر يعزف أهازيج الأفراح، والسماء تشهد على العرس الأسطوريّ، كيف لا تبتسم وهي الآن في رقصة الحياة والموت على صدره حيث به وحده تكتمل .

دمع الغياب

يقولون: إنّ هناك لحظات تختصر عمرًا، كانت تجلس على مائدة في ركن المطعم المترامي على ضفاف البحر الأحمر، تتناول طعام العشاء عندما سمعت صوتًا ينده من بين دمع الغياب، يأتيها من البعيد، يحمل معه كلّ أسرار الفراعنة الذين سكنوا هذه الجبال، صوت شجيّ يغنّي ويعزف، أوتاره تئنّ تحت لمسات أنامله، يخبر بأنفاسه قصّة زمان ومكان، وقصّة حضور، وذكريات لم تستطع أن تمسك الذات.

تحرّكت قدماها دون إرادتها إلى مكان الصوت، تريد أن ترى صاحبه، ومن بين شجر النخيل رأت طيف رجل في الثلاثين من عمره، لوّنتِ الشمس جبهته بنار أشواقها، فخلعت عليه سمرة جذّابة. كان يجلس متأبّطًا العود الذي بدا معه وحدة متكاملة، أحدهما يكمل الآخر، ومن بين شفتيه المكتنزتين تخرج الألحان مصحوبة بشغف العشق.

لم تستطع أن تقاوم هذا السحر الذي شدّها، جلست في أقرب كرسي، وهي تغيب مع حركة أنامله، وتتناحر الصور المتلاحقة في صدرها، وكأنّها أمام شريط سينمائيّ يحكي قصّة حياتها من زمن حيث التقت ذلك الشاب الأسمر ذات مساء، وفي أحضانه أحسّت بالأمان، ويعود، ويردّد: احنا الزمان، احنا المكان، وقالت لي حبك بالوجود، آهة

خرقت جدار ذلك المساء . لأول مرة تسمع هذه الكلمات التي تصف ما يجول ويدور في قلبها ، طحنت الذكريات حبه بالوجود عود . . . . عود ، صرخت متى تعود ، سأقسم معك الفرح والحياة، تدحرجت الدمعة، تلتها أخرى، وهي في حالة لا وعي، أشاح بعينيه ناحيتها ، وكأنّه عاد إلى كوكب الأرض من كوكب آخر ، أحسّ برطوبة الدمع المنساب على خدّها الغضّ، ترطب جفاف أيام الانتظار والحرمان التي انتظرها ، هذه أيام عددها سنون . أذهله ما رأى، ولكن أنّى الوصول إليها وهي محاطة بشلّة من البشر ؟ انتهت فترة العود ، وانسحب في هدوء مخلّفًا وراءه شبه إنسان عادت إلى الحياة على وقع أنغام عوده . اختفى بين الحشود يحمل عوده على ظهره، وحبّه في صدره، وخيال امرأة حبيبة في عينيه وبين أنامله، أمّا هي فجلست تحت وطأة حقد القدر وغدره .

علت الموسيقا مرة أخرى، قامت وراحت تتلوّى كغصن بان ضربه الريح، فالتوى جسد أنهكه الحنين، راح ينحني تحت وطأة كلّ نسمة، تدور وتدور في حلقات مفرغة، الكلّ يعتقد أنّها ترقص فرحًا وغبطة، أمّا هي فكانت تعلم أنّ خنجر الألم الذي يشطر أجزاءها ، هو الذي دفعها إلى حلبة الرقص، دفعها كي تتوسّط الساحة، حاولت، وتحاول إخفاءه عن البشر، ونجح ذلك الوجع، أمّا هو فكان يرقبها من وراء الزجاج البارد، لا يقوى على الاقتراب منها ، يرى فيها عروس البحر التي طالما حلم بها ، وسمع عنها في حكايات

الصيادين على الشواطئ الممتدّة. انتهت الموسيقا، رأته، مشت بخطى وئيدة إليه، لن تعيش بسجن البشر، فيما بعد ارتمت في أحضانه، وقبّلت ثغره مرارًا، وكان وحده القمر يشهد أجمل قصّة عشق ولدت في معابد البحر.

السبعون

طالما قالوا: إنّ العمر مجرّد رقم، وإنّ والعشق يقرع باب من يشاء، وينتظر من يلبّي النداء .

في السبعين من العمر لا يملك سوى منزل فارغ ملكيّة له، يعيش بين جدرانه الفارغة إلا من الصور المعلّقة على الجدران والمثير من الذكريات، بعض منها في قاعة الطعام، وأخرى في المطبخ وغرفة النوم التي تبدو رمادية، لا لون للحياة فيها بعد أن وارى من كان يشغلها، رفيقة العمر التي كانت تطرد برد الليالي الطويلة .

الأولاد كلّ في حاله وشؤونه وهمومه، وهو وحيد بعد أن أصبح على المعاش باللهجة المصرية، لا يؤنس وحدته إلا شاشة تلفزيون باردة، وبرامج يحاول أن يستمتع بها، وكمبيوتر وبعض الكتابات والقراءات هنا وهناك، ورفيق يأتيه كلّ صباح، يخرجان معًا، ويجلسان في قهوة مجاورة، يشربان القهوة والشاي، ويتبادلان الأحاديث ونشرات الأخبار والتطوّرات السياسية الحديثة، ويعودان معًا إلى زمن مرّ من أيام الشباب، كلّ منهما يبدو للآخر أنّه قانع بحاله، لكن في عمق أعماقه كان يعلم أنّ هناك شيئًا ما ينقصه، وهذه الحياة التي يعيشها ما هي إلا عبارة عن موت، فهو ميت يسير بين البشر مثل الكثيرين .

ضاقت به الدنيا ، فترك صديقه ذات صباح، وراح يمشي على غير هدى في شوارع مصر القديمة وأزقّتها ، يصغي إلى تدافع الباعة وأصواتهم من بين عجلات السيارات التي اكتظّ بها المكان، مع أنّه ممنوع مرور السيارات، ولكن هيهات، من يطيع القانون المفقود العزيز في **قاهرة المعزّ**، في شوارع الحسين حيث تنتشر المطاعم المحلية في الباحات الضيقة، ومحلات الأنتيكة والتحف والسوفنير يعلوها الغبار ، وقد بدا له أنّ تلك التحف خرجت من هرم خوفو هاربة من ظلمة القبر إلى هذا الشارع الضيق، حيث لا ينام الناس هنا ، لتستعيد نشوة الحياة من جديد ، ولِمَ لا ؟

ما زالت هنا ، يعني هناك فرصة، هناك فرصة للحياة .

جلس في مقهى صغير بعد إلحاح الموظف: يا باشا ، يا باشا ، المطعم هنا طراوة على النهر ، راح يردّد وهو يقوده إلى إحدى الطاولات، فسأله: أين النهر ؟

أريد أن أجلس بحري على النافذة المطلة على الموج العالي . قاده النادل إلى طاولة في زاوية راقت له، جلس وهو يبتسم اللللله نسيم الليل ورائحة النيل تشرح الصدر ، تجعلني أشعر بجوع شديد ، صرخ الشاب، تركه لحظات، عاد وفي يده لائحة الطعام التي مسحت حروفها من كثرة الاستخدام .

أخبرني ما لديكم اليوم الطبق اليوميّ أو أشهى ما عندك .

راح النادل يشرح له الفطير بالجبن والعسل وغيره، فأجابه: فطير بالجبن وأخرى بالعسل .

من عنيا أجابه النادل، وتركه وحده، أما هو فجلس وراح يتأمّل الوجوه المارة به، بدوا له كأنّهم تائهون في هذا الزحام، وهذا الكم من الضجيج والصراخ، وبينما هو ينتظر طعامه لفتت أنظاره سيدة في الخمسين من العمر في الطاولة المقابلة له، كانت ترقبه بعينيها الواسعتين، تسكن الوجه السموح، والثغر يبتسم بين الفينة والأخرى للفتاة الجالسة أمامها ، وتنتقل بنظرها ما بينه وبينها . لقد سبرت روحه ابتسامتها ، وبدت له كأنّه يعرفها من قبل، لم يجرؤ على الاقتراب منها والسؤال، وقبع في كرسيه تحت تأثير نشوة سرت في كلّ جسده وكيانه، وشعر أنّ الحياة دبّت بقلبه من جديد ، وأحسّ كأنّه في عمر المراهقة، وصدره لم يعد يقوى على قوة ضربات قلبه التي تسارعت وهو يرى هذه الجميلة تمشي نحوه في خطى هادئة، وتبتسم وهو مرتبك يحاول أن يفهم هل حقًّا هو من تبتسم له أم آخر ؟

ويا لشدّة دهشته، إنّه كان المعنيّ بالابتسامة، وعنصر المفاجأة سلبه حتى الكلام عندما جلست مقابله على الكرسي قائلة: لم تعرفني بعد ؟ تجمد الدم في عروقه، لقد كانت تلميذته منذ زمن بعيد ولمدة عام كامل، كيف له أن ينسى تلك الفتاة التي تركت تعليمها كي تتزوج من الرجل الذي اختاره لها والدها ، الرجل الذي يكبرها بعشرين عامًا ؟

اشتراها بمبلغ من المال هو المقدم وشقّة بغرفة واحدة، تبًا للفقر والجشع الذي يجعل الأب يبيع ابنته لأول عابر طريق.

محفظته مليئة بالنقود، تسارعت الأفكار في رأسه، والنشوة تخطف جسده، واحمرّت أذناه، بركان ضربه، جمع شتات لسانه وأفكاره، وبادلها التحية والابتسامة، وقدّم لها كوبًا من الشاي، وراح يستفسر عن أحوالها، وانفرجت أساريره عندما عرف أنّ زوجها قد توفّي، وترك لها صبية وحيدة تؤنس وحدتها، وتواعدا على لقاء آخر.

عاد إلى منزله مساء يطفر فرحًا، وقلبه يخفق بشدّة كأنّه في سنّ المراهقة، نام تلك الليلة، وكلّ ما يعرفه أنّ هذه الفرصة في الحياة عليه أن يقتنصها، وعليه أن يستجيب لهذا الفرح العارم الذي احتلّ كيانه. صباحًا قام بنشاط غير اعتياديّ، شرب قهوته، وأراد استعجال النهار، فهو على موعد أشبه بالغرام.

قالت له: صداقة، أجاب: فليكن لا يريد أن يخسر صديقة وهبت له الحياة، تتالت المواعيد، وزاد تعلّقه بها، وخاف أن يخسرها، كيف له أن يخسرها وهي التي أقامته من قبره، ونفضت عن رجولته غبار الموت، ولوّنت حنايا صدره بألوان قوس قزح، وكانت اليد التي انتشلته من بؤرة اليأس إلى واحات الأمل؟

أريد تقبيل هاتين اليدين، أريد أن أحضنهما، أريدها أن تمهد سرير صدري، وتتغلغل في حنايا روحي، قال لها ذات جلسة بعيدًا عن عيون البشر، وهي تبتسم في حياء الفتاة المراهقة التي لم تختبر العشق من قبل، ولم تلامس يدها يد رجل، ولم يحرّك أنوثتها إنسان سواه

من يشتري الوقت

صباح الخير يا ريتا ، أقولها لك بصوت محمود درويش

قال ضاحكًا ،

فأجابته:

ولماذا بصوت محمود درويش ؟

– لم أستطع أن أعبّر عن مدى اشتياقي ولهفي لا في كلمة ولا في صوت، لذا استعرت كلمات العملاق ودهشة صوته، لأقول لك: صباح الخير ولا سيما أنّك تحملين اسم ريتا ،

– درويش أنا قرأته، أمّا أنت فعرفتك، سمعتك، دخلت حنايا صدرك، جلست على أوتار صوتك، وتنسمت الحياة من دفء أنفاسك، لا يغريني درويش، ولا عمق كلامه، ولا رنّة صوته مع جليل احترامي له، كنت أفضل وما زلت أفضل رنّة صوتك، وأنين حرفك ولعثمة حرف الراء من بين شفتيك على ملاحم قدماء اليونان وهوميروس، لأنّها أنت، وصمتّت، ولم يأتها أي ردّ .

أحسّت بأنّ الثواني دهر لا يريد أن يمضي،

–كم هو أنيق كلامك، أصابني بالذهول، اعتقدت أنّك لم تقرأ ، وأنّ كلامي أزعجك .

– كيف له أن يزعجني، وهو من امرأة مثلك ؟ ألا تعلمين أنّك أول من أرسلت له تحيّاتي، وخاطبته بعد عودتي من السفر .

–عودتك، وهل كنت مسافرًا ؟

– نعم، وأنت متى تعودين ؟

–من أين ؟

– من السفر في وجداني وشريان قلبي، كم كان قاسي الانتظار .

– لم أعرف أنّك كنت مسافرًا .

– أنا عندي رحلة قريبًا .

– هل تأخذينني معك في حقيبة يدك ؟ أعدك لن أتطفّل، ولن أكون متطلّبًا .

– أنت معي في حقيبة قصائدي أينما توجّهت، وأينما ارتحلت فأنت برفقتي .

– لست متطفّلًا، لن أطلب منك أن تشتري لي حلوى ولا شوكولا، بل سأكون هادئًا ومطيعًا، إن طلبت شيئًا فهل ستشترينه لي ؟

– من عيوني . . . بالطبع الوقت . . . . الوقت كي لا أنتظر . . . . مرّ هو .

أجلس على الأرصفة كأوراق تشرين أنتظر، تبعثرت الريح، وما زلت أنتظر مشرّدة في أقبية العالم، وعلى موانئ الفصول يأتي الربيع، يعقبه الصيف ثمّ الخريف، وبرد الشتاء القارص، وأنا أدور في حلبة الانتظار، أرمي شباك الأمل، فتعود ممزّقة.

يهزأ منّي الصيّادون على الشواطئ، يقهقه الموج في وجهي، ويلسعني ألم الانتظار بقبضته، يحدث فيّ شرخًا مؤلمًا، وكأنّ الألم والانتظار قد كتبا معاهدة صلحٍ وتآخٍ على صفحات روحي وفكري وكياني، ومضيا في طريقهما، ولم يأبها لما تركا خلفهما من وجع.

- الحزن أرهق كاهلك يا ريتا. لقد غيّرت اسمي مئات المرات، ولبست كلّ الأقنعة الممكنة، وغيّرت عنواني، ومحوت تاريخي في كلّ مدينة سكنتها وتركتها، فكان يجدني وكأنّه ظلّي يتبعني، يواجهني بكلّ وقاحة، يقف لي بالمرصاد على كلّ باب فرح.

حاولت أن أقرع، يدخل مسامي دون استئذان، يعيث الفساد، ويتركني مقرّحة مجروحة، ويقهقه، وهو يقبض عليّ... لن تستطيعي الإفلات من قبضتي... سأشتري لك عمري... أنا هنا الآن... لا داعي للانتظار. ضحكت بصوت عال، من لا يعرفها اعتقد أنّها ضحكة مومس في أحد البارات تحاول أن تغري أحد الزبائن المترعة جيوبهم بالمال، وفارغة جماجمهم من الفكر، ضحكة لا شيء فيها من الصّحة والصدق، بل تحوي كلّ دهاء المرأة، وأوجاع نسل حواء بجملته.

– أنت هنا ستشتري لي عمرك ؟ ومن قال: إنّي أنتظرك ؟

صعقه كلامها ، تلبّك، أراد الانسحاب والاحتفاظ بالقليل من الكرامة وماء الوجه أمام هذه المرأة الطاغية، وكأنّها شعرت بالصمت والحيرة تلفّه، قالت بصوتها الدافئ:

هل أزعجك كلامي ؟

لا أبدًا ، صراحتي فظّة، أليس كذلك ؟

سألته وكأنّها تريد أن تفجّر أفكاره، وتستفزّه بإجابة

– بل أشكرك على صراحتك الفظّة،

– هذا كلّ ما لديك أن تشكرني ؟

– لقد طواك الألم، وجعل منك كتلة علقم، وأرى أنّك تستسيغين الوجع، وتأنسين له، بل أرى أنّك أنت من فتحت له باب حياتك على مصراعيه، علّها ذكرى تطيب لك كلما تألمتِ .

– أسمعك، أجابت:

– تسمعينني كيف وأنا الآن أكتب

-أسمعك ؟ نعم، أسمع نبرة صوتك مع كلّ حرف وبين كلّ نفس، وأرى مخارج الكلام من بين شفتيك سمفونية عذبة، صوتك يفجّر بداخلي تلك الآبار من اللهفة، لذا أحبّ أن أستفزّك بكلامي، أنت لا تشعر بالموسيقا التي تتناهى إلى مسامعي، تثملني، أنتشي بها .

-غريب أمرك يا ريتا ،

- ما أجمل اسمي حين تلفظه، كم أحبّه عندما تناديني به، ما الغريب أيها الغريب ؟

- لست أنا من تنتظرين، ولكنّك تثملين من كلامي، تناقضات امرأة، كلّك تناقضات .

-هي الأنثى - يا عزيزي- دع عنك الفلسفة، وهات قبلة، ألا تفهم أنك أنت من أنتظر ؟

موت بحري

البحر الممتدّ أمامي وهدير الموج وضحكات الأطفال، وعجيج أفكاري وألمٌ ألمّ بي فجأة، ضرب صدري وخاصرتي، وتسرّب إلى جوفي، فشعرت بنزف بسيط من أنفي، وأنا أجلس إلى مائدة الطعام، وأمامي مشويات من السمك والدجاج.

الكلّ يأكل، ولكن صخب البحر كان أقوى من شهيتي للطعام، وكان صوته يرعد بداخلي، فأرتعد، وتصيبني قشعريرة تسري في كلّ أنحاء جسدي. أردت مقاومتها، وحاولت أن أعود إلى رفقائي وإلى طبق المشويات أمامي، لكن باءت كلّ محاولاتي بالفشل.

البحر كان يصرخ، ويلفظ أعماقه على الشاطئ أمامي، وأرى الزبد المندلع نحوي محاولًا الوصول إليّ، يحترق على الرمل الأبيض، ويعاود البحر محاولاته، المرة تلو الأخرى، إلى أن انتصر أخيرًا، وتعاونت معه الشمس التي بدت لي هذا اليوم أشدّ من المعتاد، وأشعتها الحارقة اخترقتني حتى في فيء المظلات، وشجرة المانجو الكثيفة حولي.

لا حول لي ولا قوة، سحبتني قوة خفية نحو البحر، بخطى هادئة ومعها أشعر بأني أرتفع عن الأرض، وحبات الرمل تصهل ضاحكة تحت أقدامي، ويختبئ بعضها بين أصابع

رجليّ . إلى أن وطئت قدماي مياه البحر الدافئة حتى هربت حبيبات الرمال، وتركتني وحدي والزبد يعانق بطن قدمي، ويرتفع رويدًا رويدًا ليغسل ركبتي برغوته البيضاء، يرتديني وأرتديه مثل ثوب عروس تتهيأ في ليلة عرسها .

لم أعد أفطن إلى كلّ ما يجري من حولي، فأنا في الأعماق الآن، وجسدي مسجى على سجادة من الأعشاب البحرية، وبدت لي الشمس وكأنّها تذوب رويدًا رويدًا، وأنوار خافتة بدأت تظهر في المشهد ، وموج البحر هدأ كأنه شيخ تثاقلت قدماه تحت عبء السنين الطويلة، وراح يتّكئ إلى عكازه ليواصل مسيرته نحو الغروب . لزمت الصمت، لم أنبس برغم أحاديث البحر الشائقة ونجومه وفرسانه كانت كأنها موسيقا . كانوا منهمكين في التوضيب واللفّ ورشّ العطور ونثر الطحالب البحرية على كلّ أجزاء الجسد بطريقة فنية وبخفة غير معهودة، وأنا أرقب، والوجع يعاودني من جديد ، وأشعر بيد تمتدّ لي تطيب خاطري، وأسمع همسات خافتة تأتي من بين حقول المرجان قائلة:

-أنتظرك، أنتظرك، من أنت ؟

سألته من تحت أنفاسي، بصعوبة سمعت صوتي، وغبت في رحلة وموج البحر عاد ليحملني من جديد ، يوشوش في أذني .

-وأخيرًا ستقام الأفراح والليالي الملاح،

استغربت من كلامه، نعم هذه هي اللحظة الموعودة التي انتظرتها من سنين، نقطة اللقاء، وفي الحيوات الأخرى أردفت، فقال:

-أليس الهدف هو أن تجتمعا ؟

ولكن أردت أن أتذوّق رشفات العشق من بين شفتيه، وأن أهبه جسدي وروحي، وأغوص في أعماقه، وأعوضه عن سنين البعاد الطويلة، معًا ستخطوان في طريق الأعماق، وتغوصان في الأبدية المنيرة لكم وحدكم، هو ينتظرك من آلاف السنين، وفي عينيه لهفة اللقاء .

أردت أن أنتفض، أن أهرب من جديد نحو الصوت الهامس من بين شجر المرجان .

نظرت حولي ونزف روحي، ارتفعت الأصوات وموكب من المزمرين تقدم المشهد، وعلا صراخ البحر، وأعلن انتصاره، ولفّني بعباءته، وتدحرجت أمواجه فوق جسدي، لم أغرق، ولكن نشوة رفعتني، وانتهت بي في وطني .

لونا

كان يومًا ربيعيًّا من أوائل شهر نيسان المبارك على وجه الأرض.

لقد رزحت تحت عواصف الشتاء والبرد القارص طيلة أربعة شهور متتالية، وعلت الكآبة أغصان الأشجار في الحديقة العامّة، والمقاعد التي خلت من المتنزهين باتت تئنّ شوقًا لمن يجلس عليها من شيوخ وصبايا كبار وصغار، كما الأراجيح التي لعبت بها الرياح، تشتاق إلى ضحكات الأطفال، تعلو بهم نحو السماء، وتهبط صوب الأرض، على وقع ضحكاتهم التي ملأت أجزاء الحديقة حياة.

كانت "لونا" تركض بخيلاء وكأنّها تحتفل مع الأرض بعرسها، وهي ترتدي أجمل حللها. تطارد الفراشات في الحقول، فتهرب العصافير مغردة أسرابًا لتضيف الموسيقا التصويرية لمشهد الغروب هذا، حيث تستحمّ الشمس بماء المحيط وهي تتوارى خجلًا خلف الجبل والأشجار، أما" لونا" التي كانت شغوفة بهذه الأمسيات والسير في الحقول فتركض وتضرب الزهور بذنبها منتشية، تطاير عبير اللافندر، وتملأ الأجواء أريجها، فترفع "لونا" أنفها نحو العلا وكأنها تشكر الله على هذه البقعة الجميلة، حيث لم تمتدّ يد العمران والإنسان بعد لتمزّق جمالها، وتعبث بعذريتها، وتكبت جموح الحياة فيها، وتقصف عمر

الحرية فيها بسلاسل من أبنية شاهقة، وصراخ السيارات التي تنهش الاسفلت على الجانب الآخر من الجبل.

كان ممرّ ضيق متعرج صعودًا نحو الجبل يلتفّ حوله، ثمّ ينحدر نحو الوادي، حيث شجر الغار والخروب كان مأوى لكلّ طير مهاجر أو حيوان عابر من الحرّ، ولكلّ من يهوى رياضة المشي في الوعر أمثال "لونا" وأمثالي، ننسى فيها عالم التكنولوجيا والعالم الفضائيّ، ونعود لمعانقة الأرض التي جُبلنا منها، وإليها سنعود، وموسيقا السكون ممزوجة مع حفيف أوراق الشجر، إضافة إلى أجنحة العصافير التي تصفق وهي هاربة من مطاردة "لونا" لها كانت تبهج روحي، وتبعث على الاسترخاء في داخلي، إلى أن قطع فجأة نباح أمامنا بصورة شرسة. جفلت لونا قليلًا، فهي لم تكن من النوع الشرس، مع أنها من أنواع الهاسكي، رمادية اللون متشحة بالأبيض، ذات العيون الزرقاء التي تحمل براءة الأطفال وذكاءهم الفطري.

ما إن خطونا بضع خطوات حتى أصبحنا وجهًا لوجه مع صاحبة الصوت، كلبة صغيرة من نوع الشيواوا المُطعم كانت تنبح بشراسة، وتكشّر عن أنيابها بصورة عدوانية، وعبثًا صاحبتها تحاول أن تهدئ من جأشها، ولكنها كانت تزداد نباحًا في وجه "لونا" التي كانت تحاول أن تقترب منها بطريقة ودّية، وهي تهزّ ذنبها إشارة منها إلى الصداقة. تحاول أن

تنخفض بجسدها الممشوق أرضاً كي تصبح بمستوى الكلبة الأخرى التي كانت تقفز وتنبح غيظًا أكثر كلما تودّدت إليها لونا، ما لفت أنظار الكلاب الأخرى المجاورة وأصحابها الذين حاولوا أن يفهموا ما يجري.

لم تكن المرة الأولى التي تلتقي فيها "لونا" بكلاب أخرى، وتلعب معها ومع أصحابها الذين كانوا يستغربون تصرف "لونا" الودود مع الجميع، وكانوا يشيدون بجمالها، وقد تعلّق بها كلّ من رآها وأحبها.

اعتذرت من صاحبة الشيواوا التي زجرت كلبتها، وناديت "لونا" كي نتابع المسير، فوقفت لونا ورمقت الشيواوا بنظرة شفوقة وبعين ثاقبة، وكأني بها تقول: لقد فاتك قطار الحياة يا صغيرتي والمرح، ورفعت رأسها نحو الشمس، وراحت تتبختر بعزّة نفس ومرح.

انتظار آخر

انتهى العيد ، كلّ ذهب في حاله بعد ان أخذ من الأكل مآخذه، ومن المشروب ما طاب ولذ . سفرة غنية بأشهى الطعام، قضت نهارا في إعدادها كعادتها في كلّ مناسبة . هذه السنة كانت تختلف، كلّ شيء مختلف بالنسبة لها ، حتى نكهة الطعام كما أردفت من تحت أنفاسها وهي تحتسي كأس من النبيذ المعتق . تجلس في مقعدها الوثير، تتأمل المطر الذي ينهمر خارج النافذة، يغسل الحديقة والشجرات الوارفة .

لا لون ولا نكهة للطعام هذا العام بالرغم من أني أتقنته شرّ إتقان، وحرصت على نخبة الاختيارات من اللحم والدجاج والفطائر المحلاة والمعجنات، وقد أثنى الجميع على مذاقها . ولكن كيف تستطيب نفسي الطعام وقرة العين وتوأم الروح غائب ؟

وقد مرّ على انقطاعه عنها بضعة أسابيع حتى الآن .

–أين أنت، هل لي بسؤالك ؟ هل لي أن أعرف ماذا دهاك ؟ إن لم تسافر تلك السفرة المشؤومة وتعود إلى مسقط رأسك فهل كنت ستنقطع عني هذا الانقطاع ؟

تبا لك، كم أنا حانقة عليك بعمق حبي وعشقي لك، هل تستمتع بين أحضانها ؟

هل تهبك جسدها طواعية، وهل أنت راض ؟

ألم تعد تنفر من لمسة أناملها كما كنت تخبرني فيما مضى أم استأنست ورضخت للأمر الواقع وغفلت عني ونسيتني، تباً لك.

نهضت من مكانها إلى زجاجة النبيذ، وسكبت كاسًا أخرى، وجلست ترقب الطريق الطويل المترامي أمام منزلها الذي يؤدي إلى البحر.

المطر، البحر وكأس النبيذ، ألسنة النار المتراقصة في المدفأة، كلّ شيء من حولها يوقظ الحنين في داخلها، يوقظ تلك المرأة التي تحاول أن تخفيها تلك الأنثى التي تحت ذراعي.

معشوقها، لم تكف عن التفكير به ولا للحظة، لم تتوقف عن حبه ومناجاته، ولم تستجب لصوت فكرها في نبذه.

البحر... قالت وراحت ترتدي معطفها على عجل، وجرعت ما تبقى من النبيذ، وتوجهت نحو الباب، أغلقته خلفها، وراحت تمشي بقوة الشوق والغضب نحو الشاطئ وشياطين الغيرة تنطّ أمامها.

بخطى سريعة وصلت، وكانت قد خفت حدة المطر على الشاطئ، ولكن الموج كان يهدر بقوة جبار، وكان الزبد يتطاير وكأنه حمم بركانية تنبعث من فوهة بركان ثائر غاضب.

لم تأبه بل تابعت السير على الرصيف المقفر إلا من بعض الطيور المهاجرة، كانت تمشي وكأنها تهرب من شيء ما يتعقبها، خائفة غاضبة مشتاقة لا تعرف، ولكنها كانت تهرب من شيء ما، غول ما، خوفاً من أن يفترسها . نعم إنه ذلك الغول الذي بداخلها، الذي يأكلها من الداخل. تعبت من الهرب، ولكن لم تجد مكاناً تحط فيه من طيرانها، كانت طائراً مهاجراً وفريسة في ذات الوقت، كانت أشبه بطير الرخ الذي افترسه الجوع، وهو يبحث عن فريسته.

الحياة ما هي إلا مسرح كبير، والقوي فيها يفترس الصغير. لا مكان لمن لا يحمل أنياباً في فمه للصيد، ولا مكان للقلوب الضعيفة المذعنة، ولا مكان للقلوب الطيبة، طالما لعنت قلبها الرقيق كلما أرادت أن تنهش لحمه حين كان يأتي إليها بعذر أقبح من ذنب، ولكن الحبّ ولعنته، وها هي الآن تعاني الأمرين منه.

مقعد حديدي فارغ على الرصيف، هجرته حتى الطيور لكثرة النتوءات فيه وللصدأ الذي يعلوه. جلست "غدير" غير آبهة بالرطوبة ورذاذ البحر الذي بلل ثيابها ولا بالبرد ولا حتى بالمطر الذي راح ينزل ببطء على رأسها، ثم على جسدها الذي كان يشتعل من الداخل، وازدادت غزارة المطر، وكأنّ كوى السماء انفتحت لتعلن هي الأخرى غضبها، وتستشف بغدير هي بدورها، أو لعلّ السماء أرادت أن تغسلها من ضعفها لتولد إنسانة

جديدة قاسية قائمة كما الصخور التي تقف بمحاذاة الشاطئ تتصدى للموج العاتي في لعبة الربح والخسارة.

الانتصار كان من نصيب الاثنين، الموج يتكسر فتخف حدته على أطراف الصخور المسننة، يلطمهم ثم يتبعثر ويتطاير في كلّ مكان، فيعلن الصخر انتصاره، وبذات الوقت كانت الصخور تئنّ وتنحني تحت قوة الموج، وفي كلّ مرة كان يضربها كانت السكاكين المسننة البارزة مثل أنياب الأسود تنبري وتلين، ورويداً رويداً كانت تختفي حدتها، وهنا يقهقه الموج عالياً، ويزغرد ويعربد قائلاً للصخر: من انتصر الآن؟

كانت غدير تسمع أنين الصخر وعربدة الموج ونوح المطر، وأنين جسدها الذي بدأ يبرد قليلاً قليلاً، وسرت رعشة جعلتها تنتفض من مقعدها، وتجفل من أفكارها وكأنّ أنامل المطر صفعتها بقوة أعادتها إلى رشدها، فصاحت:

– لا أريد العودة إلى رشدي، أريد أن أصرف ما بقي من عمري في جنون، فالعقل للآن لم يعطني ما أردت، كان أبخل مما تصورت.

هل تصورها هذا محق وهي الغدير الذي كان ينساب في حياة الآخرين، وما إن ينهلوا منه حتى يرموه بالأحجار غيرة وحسد. كم من العشاق جلسوا على نافذتها يتندرون وينسجون أغاني الغزل وأناشيد العشق، وهي تبتسم، لم تنبس ببنت شفة، وكانت

العصافير تحوم حولها مزقزقة، والطبيعة في عرس دائم، إلى أن فتحت أجفانها ذات يوم على حب وعشق حياتها، ولكن كان يجب أن تترك كلّ ما حولها من ترف، وتتأبّط ذراع ذلك الغريب الذي ظهر من وراء غبار الشجر الكثيف.

كان ربيع وكانت الحياة ضيقة أمامها، لم يتح لها الخيار، فراحت تنهل من عشقه بلا ارتواء، كانا ينامان معًا في حضن الطبيعة، يمارسان طقوس ورقصة الموت والحياة كلما اجتمعا، لم تكن أكثر سعادة من تلك اللحظات التي كانت تقضيها في أحضانها حواء الأولى في حضن آدم، يفترشان العشب الأخضر ويلتحفان السماء والنجوم والقمر ينير لياليهم، كان فصل الربيع تلاه الصيف، وفي أوائل تشرين كان كما الطيور التي تهجر أماكنها إلى أماكن أكثر دفئًا وأمانا، وعدها أنه سيعود، ما إن ينقضي فصل الشتاء، ولكن من يستطيع أن يصمد أمام تلك العواصف التي عصفت بغدير، واقتلعت كلّ أمل في عودته حين عثرت على بقايا رسائل منه تخبرها أنه مع امرأة أخرى تم استبدالها، لا لم يتم استبدالها بل هي كانت الثانية، وهنا تزداد زمجرة المطر والموج والبحر والصخر وطيور النورس، فلا تجد مفراً من العودة إلى العش القديم، إلى منزلها الدافئ، إلى زجاجة النبيذ تشرب تنسى تنام تحلم، ثمّ تصحو إلى يوم آخر.

غضب

أين أنت الآن ؟

لم أسمع منك طيلة الصباح، جاءتها رسالة عبر الهاتف، التفتت إليها ولَم تعرف بمَا تجيب، لا تعرف كيفية تحديد هذه العلاقة، علاقة مبهمة، قرع صوت جرس في رأسها ، ودار الحوار كالمعتاد، هل هو صديق أم هو عشيق ؟

لا تعرف .

أعارت هاتفها التفاتة، قرأت الرسالة مرة أخرى، وقررت عدم الإجابة، لأنها عرفت في داخلها أنها ستضعف مرة أخرى، وتسترسل في الحديث، وسترتدي قناع السعادة، وإلى ما هنالك، وهي في هذه اللحظة بالذات أتعس مخلوقة، بل بوسعها أن توزع كميات من التعاسة على كلّ من حولها ، لذا قررت عدم الإجابة، حسنا وإن أجابته فماذا ستقول ؟ أين أنت أيضًا مثلًا ؟

هل باستطاعتك مداواة ألمي واشتياقي ؟

هل لك أن تفهم حسرة روحي ؟ هل لك أن تعيد الأيام الهاربة من أمامي ؟ هل لك أن تمزق وحدتي ؟ لا لن تستطيع، فأنت طائر آخر مكبل داخل قفص المجتمع والتقاليد ، وبينما

أفكارها تعجّ بضجيج أعلى من صوت الموسيقا حولها لفت نظرها امرأة قد تجاوزت السبعين من العمر، ترتدي مايو أزرق يتألف من قطعتين، فقالت في نفسها: يا لهذه الجرأة، أنا لا أجرؤ على هكذا لَبْس، وارتداء مايو بهذا الشكل، وهذه المرأة طويلة القامة، وملامحها تنمّ على أنها كانت من الجميلات، وممن يعتنين بأنفسهنّ وأجسادهنّ من رياضة وأكل وشرب. ليس هذا ما لفت نظرها فقط في المرأة، بل تلك النظرات الباهتة التي كانت تخفيها تحت نظارتها الشمسية.

ما إن خلعتها انكشف النقاب عن روحها ومضمونها وداخلها أو هكذا خُيل إلى من كانت ترقبها من بعيد، والتي لم يكن لديها الجرأة على لَبْس مايو بقطعتين، فراحت تراقب المرأة السبعينية بفضول أكثر، وراحت تحدث نفسها، لا أريد أن أقضي عمري وحيدة عندما أصل إلى هذه المرحلة من العمر، بل أريد من يمسك يدي، ويؤنس وحدتي.

ألا تكفي هذه الوحدة التي أعيشها الآن؟

أصعب أنواع الوحدة هي تلك التي تعيشها، وأنت محاط بكمّ هائل من البشر، ولكنهم بعيدون كلّ البعد عن فكرك وروحك، لا تتوافق أفكارك مع أفكارهم، ولا هوايتهم مع هواياتك، ولا الاهتمامات تتفق في أيّ شكل من الأشكال.

ناهيك عن روحك التي لا تعرف الاتحاد مع أرواحهم، وعندها تنشأ الوحدة وتصبح العلاقة مع المحيط أشبه بإنسان يلفظ أنفاسه الأخيرة في غرفة العناية المركزة، وهكذا كان حال صديقتنا، تلفظ أنفاسها الأخيرة في زواج لم تذق به طعم العشق وتلاقي الروح، ناهيك عن الفكر الذي بدا لها وكأن أفكارها وزوجها بعداء، بعد المغرب عن المشرق، دون أدنى حظّ بالتلاقي.

وهي غارقة في موجة أفكارها، وفي ملاحقة المرأة السبعينية الجريئة صاحبة المايوه الأزرق ذي القطعتين التي لم تخجل في ارتدائه برغم كلّ تلك التجاعيد التي تعلو جسدها، ولا بالترهّل في ذراعيها وفي فخذيها، بل كانت تتمشى على حافة البركة وكأنها تبحث عن أحد ما، وكانت تختلس النظر إلى العائلة المثالية من يوم أمس.

الزوج يحتضن زوجته الجميلة الأنيقة، ويقبلها بين الحين والآخر، ويلمس جسدها المتناسق، وبأنامله يسير على وجنتيها، ويتحسس شفتيها، هرطقة قالت في ذاتها لعله الحسد الآن نحسدهم أنا وهذه السبعينية، كلانا نبحث عن شريك، كلانا نريد رفيق، ولَم تمرّ الدقائق حتى وجدت صديقتنا السبعينية لها رجلًا في ذات عمرها تقريبًا، يعلو الشيب رأْسه، ملامح وجهه تنمّ عن سماحة لطيفة. ابتسم للمرأة، فبرقت عيناها، وأمسك يدها، ونزلا باتجاه البحر. ابتسمت في نفسها وقالت: لمَ لا؟

فما يحدث على شاطئ البحر يبقى سرًّا من أسرار البحر .

أحسّت بالامتنان لهما والفرح، وتنهدت في صمت: أريد أن أبتعد عن هذه العائلة المثالية، لأنهم في المكان الغلط الآن، ومكانهم ليس هنا بل في موسوعة جينيس فقط .

امرأةٌ في المرآة

تأمّلت في المرأة التي داخل المرآة طويلًا، وهي تسرّح شعرها الكستنائيّ، وسافرت في العيون التي تخفي مئات الأحلام والأماني، كانت قد ارتدتِ البيجاما البيضاء، وتهيّأت للنوم، عندما رنّ تلفونها بنغمة خفيفة، رسالة ليلية متأخّرة جدًّا .

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكانتِ الأشواق تغزو صدرها، والحنين يداعب أناملها، والليل بصمته العميق يوقظ كلّ أحاسيس الأنثى المنسيّة خلف غيمة العمر .

تناولت التلفون، وحدّقت طويلًا في الرسالة، هي رسالة من مجهول، كيف يكون مجهولًا ؟ أدارتِ الموسيقا، وكانت ليالي الأنس في فيينا للأمير فريد الأطرش، الموسيقا يقولون عنها إنّها الحكاية التي تخاطب الروح، واللغة التي نفهمها بالإحساس، واللفظ الذي نعيشه بالجسد .

كانت النغمات تدعوها إلى حلبة الرقص، وهي ما زالت تحدّق في المرأة داخل المرآة، خلف المرايا الباردة هناك تسكن حبيسة العمر والذكرى، وأسيرة حلم وأوراق وأشياء أخر .

حلم الطفلة راح يطفو على جلدها، ويولد من جديد من المسام، ارتعشت، ابتسمت،

وتناولت المشط من جديد، وربطت شعرها إلى أعلى رأسها، ما كشف استدارة وجهها، وأبرز جمالها الذي لم يخبُ برغم السنين، وراحت تفكّ أزرار بيجامتها، وطرحتها أرضاً، وارتدت الفستان الأسود الطويل، وأعادت تشغيل الموسيقا من جديد، وهي تضع حذاء الباليرنا، تشدّ أطرافه، وبكلّ عفوية راحت تسبح في فضاء الغرفة، وعلى وقع الموسيقا تدور وتدور، وكأنّها تعود بعجلة العمر إلى ثلاثين سنة مضت، حين كانت بين يديه يرقصان على متن الليل، وفي أعالي الجبال، كالفراشة تطير من نغمة إلى أخرى، وعلى شفتيها ابتسامة طفلة، وفي ذاكرتها طيف عبر، وفي صدرها حلم يكبر، وعلى عنقها ختم أسمر، وشم يحمل اسم شمس. توقفتِ الموسيقا، انحنت تحيي الجمهور الذي أخذته الدهشة، صفّقوا طويلاً، صاحت بهم، لا تجرؤ على رفع صوتها معاتبة.

ألم تروا من قبل طفلة سُرقت أحلامها، وغدت في منطقة الصفر، شاب شعرها، وباتت تسرق الفرح من سراب العمر؟

خائن

أغلقت هاتفها ، وقالت: سقط اليوم من عيني، ولن أدعي الحزن، لن أحزن، ولن أبكيك، ولن أعود أدعوك وطني، لن أقف على الأطلال، ولن تهزمني أحزاني .

لقد سقطت من عيني بعد أن كانت أنفاسي حبلى بأنفاسك، وأحلامي كرحيق النرجس تطاردني يومًا فيومًا .

لقد خرست أجراس روحي الآن، وأصبحت مدينة وواقع إنسانة عادية، الآن سأصلب أحلامي وأفكاري، وأطردك من خيالي ومن كتبي ودفاتري، الآن عرفت أنك لم تكن يومًا إلهامي، ولن تكون فتى أحلامي، وبنات أفكاري سوف أنحرها إن هي التفتت إليك . نعم هذا كان لسان حالها ، أربع سنين مضت وهي تحيا في وهم أنّه يحبها ، والآن وفي هذه اللحظة اكتشفت أنها لم تكن سوى دمية في يده، وأداة تسلية كي يملأ فراغ وحدة غربته، لم يحبّها يومًا ، ولم تكن ذلك النبض الذي كان يدعيه، بل كان يسجنها في العشق . . . . أنا غبية .

نعم أيتها الفتيات، يا من تعشقن من خلف الزجاج البارد ، أريد أن أنبهكنّ أنكنّ لستنّ وحدكنّ تلك الحبيبة، بل حبيباته كثر، أكثر مما تتصورن، خاصة أنتنّ أيتها السيدات

اللواتي تجاوزن الأربعين من العمر، ماذا تترجين في شباب طائش، يعيش وحده، يريد تسلية. يا غبية، لقد كان كذبه واضحًا وضوح الشمس.

كيف تغاضيت عنه؟

لقد تغاضيت عنه بإراداتي، وكنت أكذب نفسي في كلّ مرة يهاجمني الشكّ بها، في بداية العلاقة كان صادقًا، واستمرّ هكذا إلى الوقت الذي رفضت فيه أن تعطيه مراده، أن تتعرّى له أمام الكاميرا، هنا توقف عن الاهتمام بها، وما عادت كلماته كالسابق، والغزل أصبح باردًا، والاتصالات بدأت تتباعد، وازدادت الأعذار في كلّ مرة تسأله أين أنت؟ وفي كلّ مرة تنتظره يوبّخها ويقول لها: أنا مشغول بالدراسة والعمل، ولست متفرغًا مثلك للجلوس أمام الهاتف أحادث تلك وهذه، كان يتذرّع بشتى الأعذار، ولكن حدسها كان يقول: إنه لم يعد يهتمّ بها كالسابق، وإنّ أمرها لم يعد يعنيه كالسابق، كلّ ما تربطه بها الآن هو ملء الفراغ فقط. تبًّا لك، سقطت من عيني وبشدّة، نعم سوف أبقى معك إلى النهاية، كي أكشفك، وأكشف كذبك.

طالما كان يقول لها: إنها تملك حاسة التحرّي، وإنها تملك تلك الحاسة السادسة لكشف الجرائم والخيانات والكذب، لذا أرادت أن تريه أنّ حدسه في مكانه، وأنها حقيقة هي تستطيع أن تكشفه، وأن تكشف أساليبه الملتوية بسهولة جدًّا، وهذا ما جعلها تبقى على

اتصال به والتظاهر بالحبّ والغرام والعشق والغيرة واللهفة. مسكين أنت، كلّ اعتقادك أني سأموت غيرة حين تكفّ عن الاتصال بي بعد سفرك وعودتك إلى الوطن، تظنّ أنّ الحسرة ستأكلني، وأني سأعلق قلبي وروحي على أعواد الأشواق والأماني والحرمان، تعتقد بأني سأعيش محرومة ويائسة وبائسة. ضحكن ضحكة مدوية، وهنا جندت كلّ معارفها خفية، كي تعرف كلّ تفاصيل حياته خروجه ودخوله، ومع من يتكلم، ومن يحدثه حتى في أحلامه. نسيت يا من تدعي العشق أنّ كيد النساء عظيم جدًّا، وأنّ النساء وإن اختلفن في كلّ شيء ولكن حين يأتي الأمر على كشف غشّ وكذب وخداع رجل يجتمعن كلهنّ معًا عليه، ويؤلفن حلفا لا تستطيع قوات الشرق و الغرب أن تكسره، إلى أن يتم المراد وتنتهي المهمة، وهكذا جندت أقرب النساء إليه، ومن كانت باعتقادها أنها تميل نحوه، لذا تلك الفتاة لم تكذب الخبر، وقامت بدورها على أكمل وجه، وراحت تراسله، وتسأل عنه بإيعاز من الضحية، وهكذا نصبت له الشرك، وابتدأ حبل الكذب يقصر، حين كان يكلم الاثنتين معا، ولكلّ واحدة كان يقول: أنت الوحيدة التي أكلمها، وأنت الوحيدة التي يعنيني أمرها.

يا صاحبة القلب الجميل، يا شمس الشموس، أيتها العروس، لقد بدا لهنّ كأنه يكتب ذات الكلام للاثنتين، يا لغبائه، واستمرّت اللعبة بضعة شهور إلى أن آن أوان كشفه وكشف كذبه

واحتياله، وسقط في فخّ نصبه لنفسه، واليوم بالذات يوم ميلادها أفضل يوم لتعرف مدى أهميتها عنده، ومدى تفرغه لها، كالعادة تهنئة خالية من كلّ المشاعر، كلمات عادية، ومن بعدها تذرع بالأسرة، وبأنّ هناك ضيوفًا قادمين، وتمنّى لها أن تستمتع بيومها، وتجيب على رسائل المهنئين، وتعيش اللحظة.

مسكين هو مرة أخرى، لقد شعرت أنّ كلماته مجرد كلمات تقال لأنثى غبية، وشعرت بالإهانة، نعم إنه في كلّ كذبة يستهين بذكائها، وفي كلّ مرة يختلق الأعذار، يكسر قشة من قش الثقة التي منحته إياها في بداية علاقتها به. بهرجات الكلام والعشق المنمق التعابير، والوعود الواهية الخيالية، طالما كانت تسخر منها.

هي الإنسانية الواقعية التي تحلم ورجلاها تطأن الأرض، وتدوسان على كلّ من يحاول أن يقف في طريق أحلامها، ومن يجرؤ على تعدّي حدود المنطق معها، حالمة هي نعم، رومانسية كثيرًا، عاشقة أكثر بكثير، إنما في العلاقات فالشكّ قبل أيّ ثقة، والحذر قبل أيّ اندفاع، واليقظة والحرص حليفاها. طالما شكرت الله على تلك الحاسة التي يدعونها الحاسة السادسة، وعلى المصادفات التي تأتي في طريقها كاشفة معها طبيعة أكثر من إنسان، ليست المصادفات بل هذه قوى الإلهية لتحميها من البشر المتخلفين المتسلقين الفضوليين وأشباه الرجال خاصة.

نعم لقد وضع الله بطريقها تلك الصديقة التي تعاونت معها على كشف حقيقة هذا الحبيب الذي أتاها يحمل شتى أنواع البذخ والترف العشقيّ .

تبًّا لك، لقد كنت أميل إليك، وكنت مستعدّة أن أخطو معك ما بعد الألف ميل، كنت مستعدّة أن أتخلّى عن كلّ شيء في حياتي فقط، لأكون معك أسعدك وأحبّك . تبًّا لك، ولكن بمقدار حبي وعشقي لك أنا أمقتك الآن، وكلّ ما تبقى لي هو أن ألهو بك، وأنت تعتقد نفسك الرجل الذكيّ الذي تلهو بقلوب النساء، تعتقد أنك عنتر القرن العشرين أو روميو الذي ماتت من أجله جولييت .

انزل عن هذا الادعاء الفارغ، فما أنت سوى حقارة البشر، وما أنت سوى جرذ يختبئ في شوارع المدن بين أكوام القمامة، تقتات من الزبالة .

لا تحكموا عليّ حكمًا خاطئاً وتسيئوا الظنّ بي وتقولوا: إنّ حقدي أعمى عيني، وغيرتي كبلت المنطق في عقلي، وحجبت عن بصيرتي الرؤيا الجليلة والحقيقية .

أنا أعرفه أكثر من كلّ البشر، أربع سنوات أتقصّاه، أدرسه، أدور في دائرته، أحاول أن أصدق ما يقول، فلا أرى أمامي سوى إنسان فاشل بدرجة ممتاز جدًّا .

رحيل مفاجئ

لم أكن أدري أنّ الوجع سيكون بهذا المقدار، وأنّ الألم سيكون فوق قدرتها على التحمل، لم تكن تعلم أنّ قلبها سينشطر نصفين، وشظايا روحها الممزقة ستملأ المؤن عويلاً، لم تكن تعلم أنها أحبّته، لدرجة لم تعد تحتمل وجود اسم امرأة أخرى في حياته، حتى ولو كانت أمّه، ابنته، ناهيك عن زوجته.

صرخت في ضيم! واتسعت مخيلتها لتتخيله في أحضان امرأة أخرى، أصابها الإعياء، أصابها الجنون، أصابها مرض عضال اسمه العشق. ضربات قلبها لم تهدأ، ودمع عينها لم يجفّ، وأناملها وأوصال جسدها، أطرافها باردة تلسع، ونار صدرها متقدة مشتعلة مثل بركان، وشفتاها لم تعرفا سوى كلمة الآه، وأين أنت!؟

منذ أن وجدت رسالة في بريدها الإلكتروني منه تقول: أغلقت كلّ مواقع الاتصال، لا تتصلي بي إلا من هنا، فأنا مسافر الليلة، عائد إلى وطني ومنزلي وأسرتي، مضطر للسفر بسبب العلاج، ولا أعلم متى أعود، وكيف ستجري أموري هناك، أتمنى لك أياماً جميلة، وشكرًا لك، شكرًا على الأوقات التي اقتطعتها من حياتك ومشغولياتك لتكوني معي، وهنا ابتسامة إلكترونية وبين قوسين عبارة (معاك ومش معاك).

ألمي أكبر من أن يحتمل أجابت، وآسفة لأنّي لم أستطع مكالمتك كما تعاهدنا يوم أمس . لا أعلم لماذا الظروف والحياة تمنعني عنك، وتقف حائلًا دون الوصول إليك حتى بالكتابة أو مخابرة تليفونية . لا أعرف كيف ومتى سألتقيك بعد هذا السفر .

واختنقت العبارات التي كانت تكتبها ، وغصت حنجرتها بألم حادّ كالطير المذبوح، راحت روحها تنتفض من أطراف أناملها وسكتت .

هذه آخرها عزيزتي، متى كنّا مع بعض، وهل أبدًا سنلتقي ؟

كان سؤاله يحمل وقع الكارثة على قلبها المريض وفكرها المشتت، لم تعرف الإجابة، وراحت تفكر بضع ثوان، وتقرأ الكلمات بتأنٍّ هل أبدًا سنلتقي ؟

تردّد بصوت خافت .

ما زلت أنتظر الجواب كتب لها ،

وكانت عندها تكتب سنلتقي يومًا .

هذا ما أردت أن أسمعه منكِ، لماذا التأخير في الإجابة ؟

سنلتقي، نعم سنلتقي، لو أنك تدرك الألم الذي أعانيه الآن، التشتت الجنون الغضب الثورة القهر، الغيرة، لكنت عذرتني على التأخير .

فأنا أفتش عن كلمات قليلة تحتوي هذه المعاناة، وتختصر كمية المشاعر في كلمتين: نعم سنلتقي .

نسيتِ الأهم

الأهمّ أجابت

نعم

الأهمّ هو القصور، وقلة الحيلة، والشعور بالعجز .

نعم هذا بعينه، ألم الشعور بالعجز لا يضاهيه أمل، لو كنت من أصحاب رؤوس الأموال كنت الآن في طريقي إليكِ، ولكن

قاطعته قائلة:

ولكن أحبك، وأعشقك، أرجو ألا تنسى هذا .

الحبّ والعشق والنسيان ليسوا في وارد أفكاري

هل تعلم مدى ما تعنيه لي ؟ قاطعته قائلة: أرجو أن تعلم هذا جيدًا ما أعنيه لك .

أعلمه جيدا لأنه بالذات ما تعنين أنت لي، وما أنتِ في حياتي .

بكت وانتحبت روحها ، وهو يكتب لها من المطار .

بعد قليل سيكون في أحضان امرأة أخرى. هذا هو نصيبها، أن تموت حسرة وغيرة، وتكتم أنفاسها، لا تعزية لنفس أدمنت العشق، وعرفت الحياة من خلال الحبّ.

لا تغاري، وكوني على يقين أني حين أكون معها أكون بجسدي لا بروحي أكون معها بحركة آلية، آلة لا إنسان، أما فكري وروحي فهما معك، حكمي عقلك يا حبيبتي كي لا تتعبي ولا ترهقي ذاتك، كوني بخير من فضلك، كي أكون أنا بخير.

راحت تستجدي لحظات منه تريد أن تسمع صوته، أو صورة له في آخر لقاء، كي تبرد النار التي تحرق كيانها. لا تعرف هل تبكي أم تضحك، حالة هستيرية أصابتها، فهو في كلّ مكان في روحها في كيانها، وبقاياه في كلّ نظرة، في كلّ ابتسامة في نبضة حرف تكتبه، كان هو الحياة.

كم من المرات تحدثا عن هذا اليوم، ولكنها لم تكن يومًا تفهم معنى ابتعاده عنها، كان يداعبها دائما قائلًا:

حتى الآن لم تشعري بالألم، لم تختبري مدى فظاعة أن يكون حبيبك مع شخص آخر، ولا يكون بمقدورك الوصول إليه متى تشائين.

أنا هنا كلما اتصلت وجدتني أهب إليك، أكلمك، أهدئ من روعك، أدللك، أعشقك، إن احتجتني وجدتني، ولكن أين أنت مني؟

كانت تجيبه: أعلم، أعلم مدى ألم الانتظار والاحتياج.

لا – يا حبيبتي – لا تعلمين، لا أريدك يومًا أن تتذوقي طعم مراره، لذا سوف أجاهد كي أبعدك عنه، ولكن إذا لم أستطع، فقط اذكري أنى قد أخبرتك قبلًا محاولًا أن أجنبك، وأني حاربت كي أبعدك عن أيّ ألم، فألمك يؤلمني، فأنت قطعة من قلبي، أنت الدم الذي يجري في عروقي، كيف لي أن أدعك تتألمين؟ آه.. ليتك أمامي الآن لكنت قتلتك بحضني، وهشمت وجهك بقبلاتي، وغيرت خارطة جسدك، وصهرته تحت حرارة جسدي، آه.... ثمّ آهات لا تكفي، لا تكفي.

نعم أخبرتني... تمتمت وهي تجرجر أناملها على صورته التي أرسلها لها من بهو المطار وهو ينتظر طيارته، حتى هناك لم تستطع أن تكلمه.

أيها الحاضر، أيها الغائب في كلّ تفاصيل جسدي، في أنفاسي، أرادت أن تصرخ: لا ترحل، ولكن جمدت الكلمات في فمها، وكأن حبالها الصوتية أصابها البُكم في تلك اللحظة بالذات، وجمدت أوصالها، لا ترحل، لا يحقّ لي أن أطلب منه ذلك، كيف لي أن أمنعه عن بيته؟ أنانية نعم، وأنانية جدًا، أنانية في الحبّ، أنانية في عشقه، أنانية في حضوره، تريده لها، لم تؤمن أبدًا بالمقولات أن تترك حبيبك حرًّا، لم تؤمن أن الحبيب يُترك ليبتعد، فالحبيب هو كي يبقى في حضن الحبيب.

راحت تستعيد أيامها الخوالي معه، وتنهمر الدموع شلالًا دافئًا من عينيها ، من أعد لك حقائبك لتهجرني وترحل، من جعل حكم القدر يتحكم بنا .

صباح الخير يا سيدة الحبّ،

صباح الخير أيها الحبّ،

بك يليق العشق

وعليك لهفة الحبّ وجنونه

دعيني أسكر بتلك النظرات، لا تغمضي العين أبدًا وأنا معك، فهناك بحر وعمق يشدني، وهناك سحر به أتوه ودوامة . هناك حياة أخرى، وعالم يجعلني أسعد رجل في العالم لمجرد النظر في محار عينيك . وتلك الابتسامة، هل تأملت يومًا شفتيك ؟ كما أشتهي كما أريد ، وكأنّ الخالق صنع كلّ التفاصيل التي اشتهيها في المرأة والتي تُشبعني . هل سألت ذاتك مرة: كيف أحبّك، ولماذا أجدك الوطن الهارب ؟

كانت تصغي إليه بشغف، والأنثى في داخلها تستفزّها رجولته، أحبته، لم تعرف لماذا وكان يضحك كثيرًا وعاليًا عندما تسأله: لم أحبك لهذه الدرجة ؟

السؤال الأصح يا حبيبتي هو لماذا لا تحبينني لهذه الدرجة ؟ هذا ما أسأل ذاتي كلّ صباح ومساء، لأن حبك وهبني الحياة وأكثر، لك فضل كبير على حياتي، وما أنا عليه الآن،

لقد جعلتني أنظر إلى العالم نظرة مختلفة، لقد وضعت لحياتي معنى ومغزى مذ عرفتك، قبلك كنت أحيا من غير قلب، كانت رياح الحياة تتقاذفني شمالاً ويميناً على هواها، وأنا مستسلم للاشيء، أما حين عرفتك فعندها فقط أدركت أنّ هناك شخصًا يمكن أن يوزن حياة شخص آخر، ويرى الحياة من منظور آخر.

ساعات قضتها في انتظار أول رسالة منه، وهي تغلي من الداخل مثل بركان يكاد أن ينفجر، ألا يكفي ألم الجسد والضعف والوهن الذي أصابها مؤخرًا وتدهور حالتها الصحية، جاء رحيله كي يقضي على كلّ بارقة أمل وفرح في حياتها. ما أشقاها ساعات حين ينتهي بك الأمر في بقعة الانتظار، ما بين شغف يحرقك وبين أمل يخبو مع كلّ إطلالة فجر، وأنت تتأمل تلك الشاشة الصغيرة معلقًا عليها آمالك وأحلامك في بضعة سطور، في بضع كلمات، تخبرك أنك ما زلت بخير. كلّ الأشياء تتساوى، كلّ الأمور تفقد رونقها، وكلّ الزهور والورود تفقد رائحة عطرها، عندما تجحد السماء ولا تهبها قطرات الندى. هكذا قلب الأنثى يفقد رونقها، ويفقد معنى الحياة به عندما تفقد الرغبة في النوم والأكل، وتُرهق وتزهق روحها ساعات الانتظار الطويلة، ناهيك عن الارتحال المتكرر.

أيها القلب ما أغناك عن هذا التعب، ولكن عندما يداهمك العشق، وعندما يأتيك حرف من يد الحبيب أو رسالة مختصرة يخبرك بها أنه ما زال يتنفس اسمك، وبين الثانية

والثانية أنت مبتدأ حياته وأنت الخبر، عندها فقط تهب روحك إلى الحياة، ويعود الدفء إلى أطرافك التي علتها برودة الغياب، وتبتسم الحياة إلى حين انطفاء الضوء الأخضر، وإغلاق الهاتف وكلمة كوني بخير.

لا أريد أن أكون بخير، لا أريد أن تقول لي كوني بخير، صرخت في وجهه آخر مرة كلمها، كيف وأنى لي أن أكون بخير، وأنا لا أسمع منك خبرًا إلا من أسبوع لأسبوع، أنتظر وأنتظر.

تأتيني بضع لحظات، تقول فيها: إنك مشغول، وإنّ هناك مشاكل متكدسة تنتظرك.

هل تريد مني أن أصدقك؟ هل تعتقد أني إلى هذا الحد من الغباء؟ لا يا سيدي لا وألف لا، سيأتي يوم حين أقتلع ذلك القلب الذي عشقك من صدري، وألقيه في موقد النار، بخور ومحرقة، قربان وأضحية باسم الحبّ لا باسم العشق ربما. وأستعيد حريتي، وأكسر القيد الذي دخلت فيه بإرادتي حين اخترت أن أحبك، حين اخترت أن أترك العالم بأسره، وأتجه إليك، حين سرت إليك بخطى وئيدة، لأعشقك وأعشق ذاتي فيك.

استيقظت فجأة من حلم بل كابوس، أرهقها والعرق يتصبب من جبينها وعلى رقبتها وصدرها يعلو ويهبط، وضربات قلبها تتسارع.

يا له من حلم مفزع.

أسرعت إلى هاتفها تتفقده، لقد أرسلت رسالة له منذ أيام ولغاية الآن لم تلق جوابًا، وكانت تأمل في هذه الساعة المتأخرة من الليل أن تجد ما يبرد ألم الانتظار، وراحت أحداث الحلم التي استيقظت منه مرعوبة تعود إلى ذاكرتها، كأنها حدثت بالفعل، فتمتمت: لا، لا أنا أحبه، وهو يحبني، وهذا بعيد كلّ البعد عن أن يتركني وينساني، لم تأبه للألم الذي أصاب صدرها، ولم تهتمّ لما يدور حولها، من كونها أصبحت وحيدة، وابتعدت عن كلّ أصدقائها حتى أهل بيتها.

لم تنتبه أنها تحيا في مأساة، مأساة من الداخل تستنزف روحها، إنها لمعادلة معقدة لامرأة أحبّت من كلّ جوارحها، وفي ذات الوقت أثقلها الكتمان، لا تستطيع أن تتكلم وتشكي، ولمن تشتكي، ليس لديها أي حقّ في هذه العلاقة، لذا فالشكوى من سابع المستحيلات، حتى ولو تكلمت فالكلام صعب جدًّا، والحروف متعسرة، إنها أشدّ حسرة وألم الآن من اليوم الذي رأت فيه رسالته المختصرة. . . سوف أعود إلى بلدي. . .، تبًّا، ورمت هاتفها على الطاولة، وراحت تغلي لها فنجانا من القهوة، تشربه على مهل، ومن ثم تدير ما تبقى منه في حركة عفوية، وتنظر إلى الخطوط في داخله، وكأنها تلتمس خبرًا من عالم الغيب من قعر الفنجان، وهنا ينطبق القول: إنّ الغريق يتعلق بقشة، وها هي غريقة عشاق

تتعلق بحبال خطوط القهوة في قعر فنجان، مثلها مثل باقي النساء الجاهلات التي طالما سخرت منهنّ ومن تعلقهنّ بقراءة الفنجان وانتظار أن يخبرهنّ عن مستقبلهنّ .

هو الحبّ، هو الشوق، هو الحنين يجعل منا بشرًا غير الذين اعتدنا عليهم، وأردفت تقول: لا بدّ من باب يفتح، لا يمكن أن يكون كلّ شيء سلبيًّا ومغلقًا في حياتي، لا بدّ أن يكون هناك منفذ .

انفصام

لو كنت تعرف مدى الألم الذي يمزّق روحي، والسيف الذي يقطع أوصالي لكنت سكتّ وصمتّ عن الكلام. لو كنت تعلم كم أنا غرقى في هذا الزحام، أتخبّط بين الضمير والرغبة، لكنت أحجمت عن أن تكمل.

صرخت بوجهه وهي في حالة هستيرية تريد أن تقفز في مجرى النيل، تريد أن تنهي هذا الصراع الذي يمزّق أحشاءها.

ليس ذنبي، ليس ذنبي أن أعشق امرأة أحبّها، وعشقها ألوف الرجال، وهي أحبّت واحدًا فقط.

تنهّدت وهي تقول وحرارة الكلام يلسع وجنتيها، ووخز الدمع يرسم صورة رجل واحد.

جلس في هدوء، وهي تعلم أنّه الآن هو من يتمنّى أن يقفز إلى أعماق النيل، وشيء واحد يمنعه، هو حبّه لها.

لعن الساعة التي سمح لتلك الدموع أن يكون هو سببها.

لا عليك قال لا تهتمّي بي، أنا تعوّدت صدّك، ولكن كوني على يقين أنّي أدمنت حبّك، أرضى بالفتات.

أيّ رجل أنت ؟ أيّ وجع أنت يا هذا ؟ أجابت: وما الذي يجبرك ولماذا ؟

لا أحد يجبرني على أن أعشقك، أحبّ الموسيقا ، هل أجبرتني الموسيقا على حبّها ، أعشق فيروز، هل أجبرتني فيروز على حبّها ، وأعشقك يا من تحملين تقاسيم الناي في وجهك،

أحبك، لا تسألي لماذا وكيف ؟ أنا أكتفي أن أراك سعيدة .

هل تعلمين أنّي ألملم بقايا من شعرك العالق على الكراسي، أجمعه، وأستودعه في مخبأ سرّيّ، لأنّه شعرك . ستقولين: إنّي مجنون، أنا كذلك، لا أنكر .

لأول مرة أرى إنسانة تبكي من كثرة الحبّ، لأول مرة أرى إنسانة تتألّم وهي تصغي إلى كلام الحبّ والعشق يقال لها

عبد الحليم أضاف أضعاف الألم .

لَم تبكين يا نفسي في حين أنّه كان يجب أن تفرحي، ما الذي يكدرك ؟ هو يحبّك، وله الحقّ في مشاعره، وأنت ماذا ؟ وقفت أمام النافذة المطلّة على النيل في انتظار التاكسي، لنقلها إلى فندقها القريب .

أنا ماذا ؟

أنا إنسانة تعيش بالحبّ، أحبّت وعشقت، وكان لها الزمن بالمرصاد، ليسلبها السعادة التي تنتظرها أيّ امرأة. قبل اللقاء لعب القدر لعبته، ليكشف لها قناع من أحبّت، ليكشف لها أنّها عاشت الوهم سنين طويلة، وكانت المواعيد كلّها كاذبة، تريد أن تقتصّ من ذاتها، يا له من غباء، ويا لها من غبية.

الألم احتدم، وأصبحت الأمور خارج سيطرتها، يداها ترتجفان، وازرقّت أناملها من كثرة الضغط عليها، تريد أن تنهي مأساتها ومأساة كلّ من أحبّها، علقم ومرّ كالحنظل، لا تقترب منّي، قالت له لا تقترب من قلبي، فأنا داء عضال يصيب كلّ من اقترب منّي، وأطلقت العنان هنا للدمع، وهي تستذكر آخر لقاء مع عشقها الوحيد، والشفاه تعانق الشفاه، والجسد يرتعد تحت وطأة الانصهار.

لم يعد باستطاعتها أن تقف، خانتها ركبتاها، وانهارت تحتها، لم يكن إلى جانبها أحد تتكئ عليه بعد أن زعقت بوجه الأخير الذي حمل المنديل الذي مسحت به دمعها قبله، واستودعه في جيب سترته الداخلية إلى جانب قلبه قائلًا: إنّه أثمن منديل في الوجود، انصرف من وجهي صرخت به، لا أستحقّ هذا الحبّ، انصرف.

تركها ومضى على مضض، وهي تلملم أشياءها وأشلاءها، وعلى شفتيها جملة واحدة: لم يعد للحياة معنى بعد رحيله، لا معنى للحياة دونك، أنهك كاحلها اليأس الذي سيطر

على روحها، وعزمت على إنهاء حياتها أيضاً، لكنّها كانت جبانة جداً من أن ترمي ذاتها في النيل، عادت إلى الفندق، أخذت كمية من العقاقير المهدّئة، وانزلقت في غيبوبة مؤقّتة في عالمها الخاصّ.

فلسفة نظرة وامرأة

"من ينظر إلى امرأة ترتدي ثيابها ، أو تضع المكياج فلا بدّ أن يكون فيلسوفًا أو مجنونًا"

هذا ما قاله بلزاك، فما رأي بلزاك في رجل لا ينظر بتاتًا إلى امرأته وهي تتبرّج أو تستحمّ أو ترتدى ثيابها ، ما رأيه ؟

تلعثم وراح يعبث بالسيجار بين يديه، ويرفع كأس النبيذ إلى شفتيه، وقبل أن يلثم شفته وضعه على الطاولة بحركة عصبيّة، وترك مقعده، واتّجه نحو النافذة المطلّة على البحر، وقد بدا الموج المتلاطم يتدحرج نحو الشاطئ، ليُلاقي حتفه على الرمل الحار في لهيب شهر آب أغسطس .

لم أستغرب حركته العصبيّة، ففي النهاية هو رجلٌ شرقيّ .

أخذت فنجان قهوتي، وسكبت المزيد ، واستندت إلى الحائط القريب منّي، وأخذت هاتفي، وراحت أصابعي تعبث بمفاتيحه، لم أكن أدري عمّا أبحث، حتى وصل بي المطاف إلى قناة اليوتيوب، واخترت أوّل أغنية صادفتني : أمّ كلثوم والأطلال .

الأطلال عنوان قصيدة فريدة، سرقت قلوب الكثير من المعجبين، أما أنا فمجرّد العنوان يصيبني بنوبة عصبيّة، لا تستغربوا وتستعجلوا بالحكم عليّ، فلكلّ واحد منّا ذوقه في

الأغاني، وفِي الكلمات والصوت والموسيقا .

اعتراضي ليس عليها بل على المعنى المبطّن الذي تحمله في طيّاتها الكلمات:

" أعطِني حرّيتي أطلقْ يديّا "

جملة تصيبني بالإعياء، وأجزم أنّ كلّ امرأة تعشق الحرّية سيكون لها ردّ الفعل نفسه .

ما بالنا نحن النساء ولا سيما العربيات، نترك الحاضر، ونعود إلى الماضي نجلس القرفصاء حول الخيام المهدومة، وحول رماد المواقد، ونبكي على من كانوا يشغلون المكان، نبكي على الأطلال، ونُمجّد قيودًا، ونتغنّى بعبوديّة المرأة، قيد أدمى القلب قبل المعصم، ونبجّل عهود رجل لم يصنْ واحدًا منها، والمرأة المسكينة المتّشحة بخمار العشق حتى الآن تُبقي عليه برغم كلّ عاهته، وما فعله ويفعله في حياتها من استبداد، تبًّا، إذا كانت هذه هي الرومانسية فلا . . . . لا أريدها .

أريد أن أعلن الثورة عليها، وأن أتحرّر منها تمامًا، ما زلت غارقة في أفكاري المتمرّدة وكيفية الإعداد للانتفاضة على عبوديّة الرجل الطاغية، وعينيه الساحرتين وما فيهما من جلال وعزّ وحياء .

خيّل لي أنّ هذا الرجل الذي تتغنّى به أمّ كلثوم ذكرٌ يتبختر كالطاووس، يتباهى بألوان

ذكوريته بين النساء، وفي المساء يجلس على عرشه، ومن حوله الجواري وكأنّه أحد السلاطين من العصور الغابرة.

لا ينظر إلى امرأته وهي ترتدي ثيابها وتتزيّن، وتضع العطر تحت أذنيها، وتغلّف جسدها المرمريّ بقطعة قماش حريرية تكاد لا تغطّي جزءًا منها، وتضع أحمر الشفاه، تبرز ذلك الثغر الكرزي الذي يدعو إلى حفلة عشاء شهية، ويزور معابد نهديها، ومنحنيات خاصرتها، ومغاور سرّتها، بأنامل فاحصة، وتمتدّ اللحظات إلى ساعات، ويهيّئ جيشا عرمرمًا، ليقتحم قلاع كتفيها، ويفترش زنديها، ويقبل أنفاس الحياة في لهب أنفاسها، يغوص في هذا الكائن الجميل، ويرفع القبعة احترامًا وإجلالًا، تنهّد، وأضاف قائلًا: يكون زنديقًا من يدع امرأته ترتدي ثيابها، ولا يشارك في تمجيد هذا المخلوق الذي يدعى المرأة.

عندها تنهدت واتسعت عيناي، ورحت أحدّق في ظهره ومنكبيه، وأقيس مساحة كتفيه، مشدوهة، مشدودة إلى هذا الغريب الذي التقيته للتوّ في المطعم الصيفيّ للفندق الذي أقيم به لمدة أسبوع في إجازة بعيدًا عن ضوضاء المدينة وضجيج المشاغل.

عندما بادرني بابتسامة يسأل إن كان يستطيع مشاركتي الطاولة، أومأت بحركة عفويّة من رأسي بالإيجاب، فجلس، وتجاذبنا أطراف الحديث، وكان قرص شمس الغياب كتلة حمراء تتأهّب للغوص في مياه المحيط مثل حوريّة تستعدّ للاستحمام بعد يوم طويل من

الدوران في قبة السماء .

ربما تبرّد انعكاس اللهب المتصاعد من جوف الأرض، وكانت قد نثرت حممها على طول وعرض المدى، فاصطبغ الأفق كلّه باللون الأحمر، وبدت صفحة اليمّ غجريّة ترتدي بدلة الرقص المزركشة، وراحت ترقص على موسيقا الموج المتلاطم نحو الشاطئ في حركة آلية تنذر بليلة عشق لفتاة يافعة، تتأبّط ذراع شاب أسمر، يسيران على الشاطئ منهمكين في الحديث والضحك واللعب، حتى جلسا تحت مظلّة مصنوعة من أوراق الموز، وراحت الفتاة تخلع ثيابها قطعة تلو الأخرى، وهو مستوقف إياها بين القطعة والقطعة، يتأمّلها ممسكًا بيدها، وتستدير معه وكأنه يريد التأكّد من أنّ كلّ جسدها هنا وعلى ما يرام، وفي مرمى شفتيه، وهي تضحك وتطبع على ثغره قبلة، وتستكمل خلع ثيابها، وهنا لاحظ ضيفي انشغالي بالنظر إليهما، فقال لي جملة بلزاك الشهيرة: "من ينظر إلى امرأة ترتدي ثيابها أو تضع المكياج فلا بدّ أن يكون فيلسوفًا أو مجنونًا "

فمن منهم أنت يا تُرى؟

سألته بنوع من الفضول، هل أنت الفيلسوف أم . . . ؟

لم يدعني

أكمل، فقاطعني مبتسمًا: أنا المجنون .

سحرتني ابتسامته، وزادت رغبتي في عناقه كي أعبّر له عن إعجابي به، وابتسمت لخيالي، ليس المريض بل الجريء:

وماذا عن المرأة؟

ماذا عن المرأة التي تحدّق في الرجل الذي يرتدي ثيابه؟ قال ضاحكًا ويضع العطر، ضحكت من انتقائه لكلماته:

ما رأيك؟

لم أستطع الإجابة الفورية، خانتني سرعة البديهة هذه المرة، ورحت أفتّش عن مواقفَ وكلماتٍ وواقع فيه امرأة تحدّق في رجل يرتدي ثيابه دون أن تُنعت بالمجون والخلاعة. امتعضت لمجرد الفكرة، أطلال مجون عبودية، أغلال قيود، متى يحقّ للمرأة أن تحدّق في جسد رجلها دون أن تشعر بعقدة الذنب أو العيب أو الحرام؟

متى تستطيع أن تتمتّع بجمال جسد رجلها، والتغزّل به دون أن تخشى حكم ضمير مريض، وتعاليم توارثتها من أجيال مضت، ومفاهيم من عهود غابرة؟

أليس الله هو من خلقهما ذكرًا وأنثى؟ أوليس حين خلقهما كانا عاريين، ولَم يخجلا من جسديهما؟ تململت في مقعدي، وأنا أرى علامات الاستفهام في نظراته إليّ، ينتظر منّي الإجابة، أصابتني الحيرة.

جميلة قال؛

من أجبت

عيناك

تلبّكت مثل طفلة

جميلتان عيناك، وهما تعكسان صورة البحر،

ليست زرقاء

لا أقصد اللون بل الموج. . . . العمق. . . . الأسرار

ابتسمت وقلت: شكرًا .

لم تجيبي بعد، آسف إن كنت قد أحرجتك .

لا. . . . لا أبدًا، ولكن ما زلت أفكّر .

تفكرين بإجابة دبلوماسية منمّقة ؟

لا. . . . لا

لا بأس لم أقصد إربا كك .

وكان على حقّ، فلقد كنت مرتبكة للغاية، ليس من الإجابة وحسب، بل كنت مرتبكة في إحصاء عدد ارتعاشات جسدي تحت وطأة نظراته، وتحت إلحاح خيالي الذي يحثّني

على عناقه، وتذوّق شفتيه.

لا بدّ أنّ هناك شيئًا في القهوة، نوعًا من المُسكر، قلت له، وضحكنا معًا، أعتقد أنّهم مزجوا مشروب المارغريتا بقهوتي، لذا تراني مشتّتة مرتبكة. . . .

لم أكمل حين شعرت بضغط يده على يدي، قادني إلى حلبة الرقص مطوّقًا جسدي المرتعش بكلتا ذراعيه، مغلفًا روحي بدفء أنفاسه، قابضًا على كياني بسحره.

استسلمت بين يديه، تركته يقود خطواتي، وأنا أرقص طربًا، نشوى عشقًا، وكلّي متأهّبة وكأنّي في ساحة معركة.

اقتربت من أذنه، وهمست: لم أرَ بعدُ رجلًا يرتدي ثيابه، ويتدثّر بعطره، فانحنى قليلًا، ليسمعني عن كثب في وسط ضجيج الموسيقا والنّاس مستفسرًا عمّا قلته له، فقلت: لم أرَ بعدُ رجلًا عاريًا يرتدي ثيابه، لذا لا أستطيع الإجابة عن سؤالك، استغرب من كلامي، ورفع يدي التي تحمل خاتم الزواج، وقال: وهذا من يكون؟

لم تفهم قولي: لم أر رجلًا، وهذا تابع لذكر.

ابتسم، احتضن جسدي من جديد، وهمس: أيتها الأنثى، وقبّل أرنبة أذني، واستيقظت من حلمي على صوت الرعد في منتصف آب، وأغنية معقول تشتي بآب ترنّ في أذني، نعم معقول، لكن من غير المعقول أن ألتقيك أيها الرجل إلا في أحلامي.

سناجب وذكرى

اليوم تعمّدت الذهاب إلى المكان الذي تمّ فيه أول لقاء بيننا ، برودة الطقس برغم الشمس لفحت وجهي، تعاونت لتجفّف دمعي، السناجب خرجت من أوكارها لتشهد بعيون الدهشة، تراقب وأنا أحفر تحت شجرة الصنوبر .

تجمّعت حولي، أراها تتهامس، وتضحك أحيانًا ، وأحيانًا تصيبها الدهشة، ماذا أفعل هنا ؟

نعم لقد أتيت لأدفن ما تبقّى منك في ذاكرتي .

يقولون: إنّ الأماكن أشدّ إخلاصًا من البشر، نعم، هذا المكان بالذات كما عهدته يوم اللقاء الأول، الشجر، الحجر، السور، والعشب الأخضر، كلّها هنا، ما عداك . . لا . . . . لا أنت هنا في قلبي، أسأت التقدير والتذكير، لعلّها الأوجاع التي تعصف بي، أو أمطار الدموع التي منعت عينيّ من الرؤية . أنت هنا وإلا لماذا آتي ؟ لا تعتقد أنّي أبكيك، لا، أنا لا أبكي، إنه غبار الصنوبر، فكما تعلم عندي حساسية شديدة لغبار الصنوبر .

أتيت لأكمل مراسيم الدفن، وأتقبّل التعازي .

في ذات المكان رحت أخاطب نفسي .

ضحك السنجاب الذي يجلس قبالتي، يرمقني بعين الشفقة.

رميته بحجر، وصرخت به: اغرب عن وجهي، لا أريد أن أراك أو تراني، وخاصّة الآن، لأنّني سأعلن عليك الغضب.

انحنى والتقط بلوطة عن الأرض، وأخذ يقضمها بطريقة آلية، ويرمقني بين الفينة والأخرى بطرف عينيه، وكأنّه يقول لي: افعلي ما شئت، اسكبي جام غضبك عليّ، مسكينة أنت.

من تواري تحت الثرى حبيبًا على قيد العشق في صدرها، تكذبين نعم.

لا، أنا لا أكذب، ألا ترى يدي الملطّخة بالدماء؟ ألا ترى النعش والزهور؟ انظر، انظر حتى أنّي كتبت قصيدة رثاء، لقد أعددت كلّ شيء، لقد قمت بكلّ المراسيم.

قهقه وكأنه يقول: وكأنّي لا أعرفك.

وراح يدور من حولي، فتخيّلته رجلًا ذا شاربين وذقن بيضاء طويلة، وجبهة عريضة، وظهر مقوّس، يمسك بإحدى يديه عكّازًا من جذوع الشجر اليابسة، والأخرى يعقدها خلف ظهره.

بدا لي رجلًا من الحكماء، ربما الصينيون الذين قضوا حياتهم في التصوّف واستحضار الطاقة والتأمّل.

لم يضف أيّ شيء، سوى التحديق، وتغيرت ملامحه من السخرية والشفقة إلى الجدية.

تجاهلته، لا أريد أن أخوض معركة فلسفية أخرى، أريد أن أنتهي من مراسم الدفن، وأعود إلى طبيعتي، إلى ذاتي. أشعلت بعض الشموع، وشغلت موسيقا فريد الأطرش وأغنية "عِشْ أنتَ. . . . إنّي مِتُ بعدِك" ولكن أنا لم تبق أية بقايا من الغرام في مهجتي، لم يبقَ هناك أيّ شيء، ختمت قلبي، وأحكمت إغلاقه بعدك، نعم بعد أن عرفتك.

هذه باقة القرنفل، لن أختار الأزرق، فأنا أعشقه، ولا أريد أن أتوقّف عنده بعد دفنك. نعم القرنفل كافٍ، لم أنتبه لحشد السناجب الذي بدا يقفز حولي، يطلُ من على غصون شجرة البلوط القريبة، ثمّ يرحل.

تمنيت أن أكون واحدًا منها، أعيش على الشجر، وأرقص تحت أشعّة الشمس بعد المطر، بلا حبّ ولا عشق ولا شوق ولا حنين. لقد حفرت بما فيه الكفاية، آن أن أسجي الميت في مثواه الأخير. بيدي دم قان يسيل على العشب الأخضر، شعرت ببرودة ودوران خفيف، كان البرد يغلف صدري، بدأت أرتجف، لعلّه الحزن العميق، لا. . . . لعلّه منظر الدماء، لا. . . . لا، ماذا هناك إذن؟ انتابتني قشعريرة غمرتني من رأسي إلى أخمص قدمي، بدأت أشعر بالوهن في جسدي، تراخت قدماي، لم تعودا قادرتين على

حملي، حنقتُ على ضعفي، وبختَني سرًّا لجبني، ولضعف قلبي ورقّته في هذه المواقف، قلبي. . . . قلبي.

عندها فقط أدركت أنّي كنت أحمله بين يديّ، وأنّي انتزعته من صدري.

أسرعت في وضعه داخل الحفرة، أطمره بالتراب بسرعة قبل أن تخور قواي، كان مثل العصفور ينتفض، ما زال ينبض، ما زال يصرخ باسمك، ما زلت تسكنه، لم أستطع إسكاته إلا بعد جهد، يدي مبلّلة بدماء العشق والتراب، لفظت آخر أنفاسي، وأنا أردّد مراسيم الدفن: " من العشق للعشق، ارقد بسلام يا حبيبي

اليوم في هذه اللحظة لحظة كتابة هذه الكلمات أنثى جديدة ولدت، وكانت أولى صرخاتها: كرامتي فوق قلبي وذكرياتي، وتمدّدت بين زهور القرنفل غارقة في بحر أحلامي. . . .

سويسرا صقيع الغربة

في عمق صقيع الغربة، وجوف الهجرة المتجمّد ، ورائحة التهجير المختلطة برائحة الحطب المحروق، وقطعان بشرية منتشرة على طول الأرض وعرضها . ومن على ضفاف البحيرة الخالية إلا من أسراب طيور تحاول أن تصطاد الأسماك، يولد الدفء ، وتعزف الأنامل الموسيقا ، لتنشر الأمان والفرح هناك .

وعند منحدرات السهرات الخالية، والبيوت الصامتة، القابعة عند أقدام الجبال الشاهقة، لينشر الأمان والمحبّة من حوله .

كان اليأس يتأبّط ظلّي، والملل يكاد يخنق أطرافي التي تكاد تتجمّد من صقيع سويسرا ، وأنا أتنقّل في الحافلات بين بلد وآخر ، بين حيّ وآخر ، وبين منطقة وأخرى، تطالعني الوجوه الشاحبة، الحزن يعلوها ، شفاه لم أرَ منها إلا ما ندر يحمل ابتسامة أو تحيّة، وكأنّ الحياة هجرت أجمل بلد في العالم، الكلّ يتغنّى بسويسرا وبجمال الطبيعة فيها ، نعم الطبيعة، الجبال، البحيرة، الطيور، الشجر العاري في فصل الشتاء ، كلّها يقف بينها وبين الحياة فصل، ولكن هذا الشعب الراكض في عربات المترو هجر الفرح وجوههم، سود ، بيض، عرب، ألمان، لا فرق، الكلّ يحمل ذات الوجه الصامت . أريد الفرح، إنّي أبحث عن الفرح،

وكأنّ القدر سمع صوتي، وأرسل لي من خلال صديق دعوة للعشاء عند أسرة كرديّة، لم أكن أعرفها سوى من خلال الفيس بوك، كان من الصعب عليّ أن ألتقي بها لأول مرة، وأنا لا أعرفها شخصيًّا، ولكن بعد الإصرار من الصديق المشترك قُضي الأمر، وحدّدنا موعد اللقاء، وبعد الترقّب الطويل ها نحن نستقلّ القطار إلى المدينة المجاورة، حيث الأسرة الكرديّة التي دعتنا للعشاء، كان قلبي يدوّي كدويّ جرس في صدري، وأنا على المحطّة أردت أن أعود أدراجي، أن ألغي دعوة العشاء، لا أعرف ماذا ينتظرني في الغياب، سقطت مني جرأتي، وخانتني إرادتي، وتركت حدسي يقودني، ويغلب الواقع. كلّ شيء حزين حولي، أيمكن أن تختلف الحال مع الأسرة الكرديّة؟

ألا يمكن أن يكون هذا العشاء امتدادًا للوجوه الحزينة الأخرى التي التقيتها في سويسرا؟ يمكن، ولكن هذا القطار يمخر عباب المدينة، وأنا على متنه، وفي المحطّة التالية سوف تنقشع غيوم الهواجس، وأقف وجهًا لوجه أمام مُضيفي، لعلّه يكون فرحًا فجائيًّا في هذا البلد الكئيب.

كلّ ما عرفت عنه أنّه عازف للموسيقا، ويغنّي أيضا، وأنا أحبّ الفنّ والغناء، وأنا الضيفة الغريبة.

الترحيب بنا سبقنا، ولكن هل سيحرجني من معي؟ نعم أشعر بالحرج، الدعوة لي وحدي، وها قد أتيت بأربعة أشخاص معي.

شعرت بالضيق في آخر محطّة، ولكن الطرف الآخر من يجيب على هاتفي، نبرته تحمل الكثير من الترحيب. توقّف القطار، ترجّلنا، وإذا بي وجهًا لوجهٍ مع عادل.

عرفته من الصور، أسمر اللون، بشوش، تشعّ عيناه الداكنتان بفرح عجيب. امتدّت يده تصافحني، وكلمات الترحيب تتسارع من بين شفتيه. لقد بدّدت ابتسامته كلّ توتّر وشكّ، عرفت أنّه هنا من بين أنقاض الحزن، هناك من يبني الفرح، وهناك من بين ركام الماضي يأتي الحاضر يحمل معه الأمل. نحن من نحن؟ أنا من أنا؟ أنا أحيا في بلاد الغرب، أحمل الهويّة الفينيقيّة، وها أمامي كردي من بلاد الشام، يحمل في دمه فروسيّة الرجل الشرقيّ بشهامته، وزوجته بخجلها وشفافية وجهها الجميل تستقبلنا، ترتق فينا الشرخ الذي سبّبته الغربة، وتسكب فينا روحًا علويّة، لنجد في هذا المنزل الصغير الرحب بكرمه وطنًا يجمع بين مسلم وكرديّ ومسيحيّ.

نتماهى في هذا الفصل من العالم، نأكل من الصحن الواحد، نحمل بين ضلوعنا عزف الحياة وأحلام الفرح.

الخيبة تبخّرت، والقلق هرب، ولم يبق سوى عزف البزق، وصوت عادل يغنّي، ونغنّي، ويسمعنا الليل.

نضحك ملء القلب، ننتقل بين أرجاء المنزل كالفراشات، نمتصّ رحيق كرم الضيافة فيما لذّ وطاب من مأكل ومشرب، ونعود لنتجرّع من الموسيقا بعفوية الأطفال من يد فنّان يسكنه الطفل الكرديّ الآتي من عامودا، يحمل معه العود والبزق وأدوات موسيقية أخرى. هذه الليلة ولد في داخلي حاضر مختلف، في هذا المدى الفسيح رأيتني طفلة في زحام الحياة، تركض خلف أحلامها، تعود إلى ضيعتها، تنام على كتف أمّها، وتتّكئ إلى زند أخيها، وتشرب من كفّي والدها.

من وضع الأسوار بين الإنسان وأخيه الإنسان؟ من كتب الحرب علينا؟ من جعل الموت والقتل على الهويّة في ناموسنا؟

من شتّت أبناء البلد الواحد، وأقام الإنسان على أخيه الإنسان، في الوطن العربيّ والذبح على الهوية؟ نحن من خرجنا من بلادنا نحمل في عروقنا الخوف والوجع من الطرف الآخر.

احتكرَنا الكره في بلادنا، وهشم أحلامنا.

أما هذه الغربة الباردة فقد جمعتنا مرة أخرى حول موقد الفنّ والإنسانيّة. لم أجد في جعبتي كلمات شكر تفي صديقي الوسيط، من جعل الدمع يفرّ من عينيّ، ولا سيما أنّه قد أرسل أيضا هديّة عربون محبّة وصداقة، أربكني كطفلة أمام أستاذها، تمنّيت أن يقف الزمان، وترتفع الهامات والقلوب، ويصقلنا الزمان، لنبقى في موقد الإنسانيّة هذا.

حاصرتني المشاعر الجيّاشة، كان ذلك مسك الختام لرحلتي التي دامت قرابة الأربعين يومًا، تُوّجت بمعرفة الإنسانية الحقّة في عادل وزوجته نازنين،

والصديق الوسيط الذي يفترش الغربة، ويلتحف الشوق، ويتوسّد القصيدة.

زوجة دون رجل

٢٧ حزيران ٢٠١٧

نظرت إليّ وقالت: أنا لست منكنّ أيتها النساء المتزوجات، وصمتت برهة وكأنّها تريد أن تلتقط أنفاسها من جديد كمتسابق في باحة السباق. !

لاهثة العيون دامعة الشفاه مرتبكة. أردت أن أخفى ارتباكي ودهشتي وأنا أصغي لكلامها . . . . لم أجرؤ أن أنبس بأيّ حرف، كي لا أزيد من وجعها وحيرتها وخوفها . . .وأردفت قائلة بعد زفرة نعم زوجة لمدة ثلاثة وعشرين عامًا، ولكن لم أعرف ما هو الزواج. . .كيف يكون؟ لم أشعر بأني أنثى، لم أتذوق معنى الحبّ وانصهار أجساد المحبين في خمرة العشق واتّحادهم في كيان واحد، لم أعرف كيف أن أكون امرأة. تجهّم وجهها من جديد، وعادت ملامح الأسى تغزو وجهها الجميل، وأشاحت بيدها محاولة أن تخفي سرًّا كتمته لسنين عديدة، لتقصّ عليّ قصّة كم أحبّت زوجها، وكيف أخلصت له كلّ هذه المدّة.

زوج كان كلّ حياتها، لم تعرف الحنان من غيره، الحبّ. . .قالت وما هو الحبّ؟

هل هو الغيرة القاتلة التي أعمت عينيه أم السجن داخل القفص الذهبيّ البارد الخالي؟

توقّفت في منتصف الحديث تنظر إلى داخل عيني نظرات مستغيثة، وفي داخل حدقتيها صرخات يائسة متصاعدة من أعماق روحها . . .

عادت إلى إكمال الحديث: نعم. . . . لم يكن أمامي أي خيار آخر، تركني أبي. . . . من وجب أن يوفّر لي الحبّ، وأمّي التي هزأت بأشيائي ومشاعري، وأهملتني في ذروة احتياجي لأمّ ترشدني وغيرة أخواتي. . .

نبذني أهلي، ولم يعد لي من أسند رأسي إليه. . . . إلى من أعود؟ الحرب قائمة، وأسفاري المتعدّدة في كلّ يوم. . . . كنت أتخطّى حدود المتقاتلين إلى إحدى الجبهات إلى مركز عملي البعيد عن أيّ مخلوق بشري، إلى عمق الصحراء القاحلة كما حياتي، أحمل في قلبي ألم عبودية وقساوة أهلي. ذنبي كان أنّي أحببت الناس، وكنت أجد فيهم الخير مهما كانوا، لا يهمّني من كانوا. كم بكيت في سفري وأنا أتظاهر بالنوم خشية عيون المتطفلين. لمن أشكو وأقرب الناس إليّ. . . . أبي نبذني وطردني وأهمل واجبه الأبويّ نحوي. . . . وانهمرت دمعة صارعت كي لا تذرفها، ولكنها سبقت أناملها إلى الوجنة الرقيقة، إلى الشفتين المرتجفتين كسيف تقطع روحي، أردت احتضانها، وطمأنتها، ولكني تسمرت في كرسي مكبّلة داخل قيود الدهشة والاستغراب.

قطع ارتباكي صوتها المرتجف من خلال شلال الدموع. . . . قصّة حياتي كأمواج المحيط تنتصب أمامي، تلاطمني. سكتت قليلاً، وأردفت تقول وابتسامة باهتة على شفتيها، وكأنّها تريد تعزيتي: هذه روايتي. . . . غريب عن جنسي، فتح ذراعيه واحتضنني ولعب دور الأب في حياتي. اهتمّ بي، شكّل شبابي، كبرت على يديه مديري ورئيسي في العمل. . .وأنا فتاة جميلة لم يكن صدرها بعد قد تكوّر، تملك من الجمال ما جعل الرؤوس تحار والعقول تفتتن.

خرجت من بيت أبي وفي قلبي ألم كخنجر يشقني، كم توسلت: يا أبي، لا ترسلني إلى البعيد، كيف لقلبك أن يقسو لهذه الدرجة؟

أمّي. . . . ويحك كيف كنت تنامين؟ وكيف يداعب الكرى جفنيك وابنتك ليست في حضنك؟

كيف دون أن تطمئني إن كنت وصلت مركز عملي بعد ست ساعات بين التنقل في الحافلات المليئة أحيانا بالجنود المتوجّهين إلى ساحة الحرب؟ كيف لكم أن تناموا وأنا في الصحراء وحيدة؟

أخذني إلى المحكمة، لم أكن أدري ما القصد من هذه الرحلة. . .وحصل ما حصل، وكتبنا الكتاب، وعدت إلى أهلي، وفي قلبي تصميم أن أحرق قلوبهم، وأتزوج من غير ديني وإلى دينه أنتمي. هنا تدخلت نعمة الله، ولم يجبرني أن أتبع دينه بل تركني على راحتي.

انتقلت إلى بيت الزوجية، صمتت برهة وأشاحت بيدها إلى خصرها وما تحت، وقالت: أنا نسيت وتعمّدت نسيان ما هو الجنس.

مرة أخرى يصعقني الكلام، ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة بل لم أستطع حتى النظر إلى عينيها، وقالت: أنا لست امرأة كباقي النساء.

ثلاثة وعشرون عاما كان لي أخًا وأبًا، لم يكن لي زوجًا، لم نمارسِ الجنس إلا ثلاث مرات بسبب عجزه.

نعم كان عاجزًا جنسيًّا. وكان غيورًا لدرجة الاختناق، وكان عليّ أن أحتمل قسوته وقسوة الحياة وقدري وقسوة أهلي.

كم من الليالي بللت وسادتي أدمعي، ليس من أمّ تعزيني، ولا أخ يسندني، ولا أخت أفتح لها قلبي، ولا أب يحنو علي وألجأ إلى حضنه. . . . بل أنا مع رجل ضعف عمري، زهرة مدفونة وأنا حيّة، لم أرَ في حياتي مؤنسًا يعزيني.

ماتتِ الحياة بالنسبة لي، وتلقيت التعازي في جسدي وإحساسي بذاتي كامرأة، دفنت وأنا حيّة، وأغلقت على كياني قبري، بنت الكآبة والألم الأخرس أصبحت، ودمعي ينسكب على صدري، يتساقط مثل ندى الفجر من جفني، علّه يطفئ حريقًا ألهبني، إن طلقته فلمن أعود وأنا قبل أن أتزوجه منبوذة من أهلي ؟ والآن لمن أعود ؟

كنت أعزي نفسي وأقول: عوضتني الحياة عن أبي . . . .

لذا أقول: أنا لست كباقي النساء، فانا تزوجت أبي، غربت شمسي الآن، وأزف موعد رحيلي، فأنا حيرى، لست أدري هل في سكرة الموت ما زلت أتخبّط أم في صحوة الوجود أهيم بلا هدف ؟ صدى الألم وروحي المتمرّدة المقموعة في داخلي تفضحني، تصفعني المرارة، فالإنسان ولد حرًّا ليحيا حرًّا . لم أفقه معنى ما جرى ويجري معي، ولكن أسلمت للريح دفّة قدري، وقلت: لا بدّ أن أجازى عن إخلاصي له يومًا ما وعن ألمي .

الفهرس

على مرمى قبلة 11
ملك في الشارع..... 15
سريرُ العشقِ..... 19
تعويذة امرأة تعتذر..... 29
كل الحكاية أنني كنت أذكى منه 37
بنصر وقبلة 43
ثأر 47
بريجيت 51
آمال..... 55
مثالية 59
بين الماضي والحاضر 63
تناقضات..... 69
سلم الأحلام..... 73
دمع الغياب 77
السبعون..... 81
من يشتري الوقت 87
موت بحري..... 93
لونا 97
انتظار آخر..... 101
غضب..... 107

امرأةٌ في المرآة..... 111
خائن..... 113
رحيل مفاجئ..... 119
انفصام 129
فلسفة نظرة وامرأة..... 133
سناجب وذكرى..... 141
سويسرا صقيع الغربة 145
زوجة دون رجل 151